

دار الشروق


العالم
سنة ٢٠٠٠
مستقبل جديد للبشر

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م

الطبعة الثانية

١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م

الطبعة الثالثة

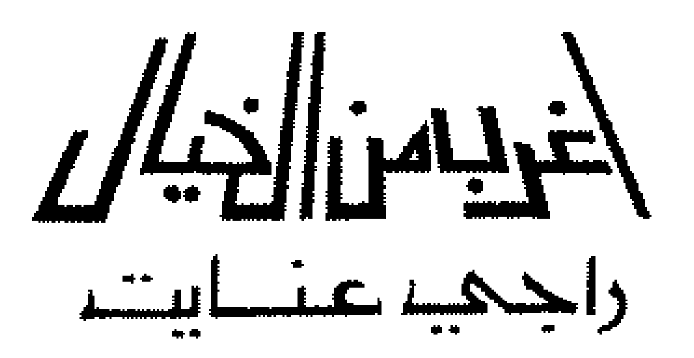
١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م

الطبعة الرابعة

١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م

© دار الشروق

[illegible]



العالم سنة ٢٠٠٠

مستقبل جديد للبشر

دار الشروق

مقدمة

فى الوقت الذى يلعب فيه الارهابيون لعبة الموت مع رهائنهم . . وتهبط العملات وسط شائعات نشوب الحرب العالمية الثالثة . . . وتنفجر السيارات المفخخة . . وتندفع قوات الصاعقة إلى أكثر من أرض . . فى هذا الوقت لا نملك إلا أن نبحلق فزعين فى عناوين الصحف التى تحمل إلينا هذه الأخبار .

سعر الذهب ، ذلك البارومتر الحساس للخوف ، يندفع فى حركته متجاوزاً كل السوابق . . البنوك تهتز . . التضخم ينفلت خارجاً عن إرادة وقدرة الجميع . . وصلت حكومات العالم فى جهودها إلى حالة أقرب إلى الشلل والبلاهة . . فى ظل هذا كله يتطلع رجل الشارع حوله قائلاً : لقد فقد العالم عقله . . . ويغرق علماء المستقبل فى دراستهم لهذه المؤشرات ، ويطل علينا بعضهم وهو يقول : إن العالم يمضى سريعاً إلى كارثة . .

لكن كاتب المستقبل المبدع آلفين توفلر يرى فى ذلك كله ، رؤية مختلفة ، ومدهشة فى تكاملها . ويرى وراء هذه الأحداث التى تبدو بلا ترابط أو معنى ، أشكالاً مدهشة للحياة ، ومستقبلا مليئاً باحتمالات الأمل ، فى اطار الموجة الثالثة من الموجات الحضارية ، والتى نعيش اليوم بداياتها .

إنه يبشر بانهيار الحضارة الصناعية التى فرضت علينا مبادئها على مدى ثلاثة قرون ، وبزوغ حضارة جديدة ، أكثر إنسانية ، وأكثر احتراما لذاتية الإنسان . .

ويقول إن الصراع الأساسى فى العالم لن يكون بين الرأسمالية والاشتراكية، بل سيكون بين أصحاب المصالح فى الحضارة الصناعية المنهارة، وبين دعاة حضارة ما وراء الصناعة التى تزحف بإصرار ، والتى ترسى أسس مجتمع المعلومات .

والأهم من هذا كله ، هو أن حضارة الموجة الثالثة ، تحمل فى طياتها أملاً جديداً لشعوب العالم الثالث ، وتبشر هذه الشعوب بإمكان تجاوز الهوة الحضارية التى تفصل بينها وبين الدول الصناعية المتطورة . ولهذا فقد أضفت فى نهاية هذا الكتاب ، مشروعاً للمناقشة ، يصلح بداية للتفكير فى كيفية تأهب مصر ، وغيرها من الدول النامية، لمواجهة الحضارة القادمة والاستفادة من ظروفها .

راجى عنايت

الفصـــل الأول

احتضـار المجتمـع الصناعـى

بعيداً عن الايديولوجيات التى تحكم رؤية علماء الشرق والغرب لمستقبل البشرية ، يقدم ألفين توفلر رؤية جديدة لمسيرة التاريخ البشرى ، رؤية ترى تاريخ الحياة على كوكبنا فى صورة تتجاوز التفاصيل المتناقضة لكى تصل إلى جوهر الأشياء ، والقوانين الأساسية التى تحكمها . لقد رأينا كيف رفض دكتور إيفان فرولوف رؤية توفلر التى تتجاوز فكرة الصراع الطبقى ، ونفس هذا الرفض يلقاه توفلر من بعض علماء المستقبل فى العالم الرأسمالى . . ومع ذلك ، فإن البناء الذى يقيمه ، والصورة التى يرسمها لحياتنا الماضية ، وما ينتظرنا فيما يقبل من أعوام ، وطريقة تحليله للماضى من أجل استخلاص قانون المستقبل ، كل ذلك يدعو إلى الاحترام ، مهما كانت خلافاتنا مع هذه الرؤية .

ألفين توفلر هو صاحب كتاب « صدمة المستقبل » الذى ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٧٠ ، والذى باع منه ما يزيد على سبعة ملايين نسخة فى أنحاء العالم ، وهو رقم قياسى عالمى ، إذا ما أدخلنا فى الاعتبار أن الكتاب لا يتحدث عن نجوم السينما أو الجنس ، وهو بالقطع ليس من بين الكتب البراقة التى تخبرك كيف تصبح مليونيراً فى ستة أشهر ! . . إنه كتاب جاد فى التحليل والنقد الاجتماعى ترك آثاره على القراء فى كل أنحاء العالم ، وجرت ترجمته إلى العديد من اللغات .

وفى عام ١٩٨٠ ، قدم توفلر كتاب « الموجة الثالثة » ، وهو كتاب أكثر جدية ، وأعمق تحليلاً ، ويتميز ببعد اجتماعى ناضج لم يتوفر لكتاب «صدمة المستقبل » . وقد حظى هذا الكتاب بنفس الإقبال والشيوع ، وحقق رقماً قياسياً فى التوزيع باليابان ، وجرت ترجمته إلى الهولندية والعبرية والتركية ، بالاضافة إلى اللغات التى كان قد ترجم إليها وهى الفرنسية والألمانية والأسبانية . ومنذ عام بدأ توفلر يعمل مع تليفزيونات اليابان وأمريكا وكندا ، لإعداد برنامج تليفزيونى هام وضخم ، يقوم على أساس أفكاره التى طرحها فى كتاب « الموجة الثالثة » .

فما قصة « الموجة الثالثة » ؟ . .

بين الكارثة والأمل

فى جميع كتاباته يركز توفلر على التغيرات التى تطرأ على حياتنا ، على سرعتها واتجاهاتها . . وهو يقوم بتحليل المعلومات فى مجالات حضارية وثقافية متعددة ، كعلم النفس والاقتصاد والتكنولوجيا والتاريخ ، ويخرج من هذا كله بصورة مذهلة فى تكاملها وجدتها لعالم الأمس واليوم والغد . والصورة التى يطرحها توفلر للقوانين التى تحكم هذه التغيرات صورة متفائلة ، برغم كل ما نعيشه من فوضى وأزمات ومشاكل وصدامات . . فى هذا يقول :

« فى الوقت الذى يلعب فيه الارهابيون لعبة الموت مع رهائنهم ، وتهبط العملات وسط شائعات نشوب الحرب العالمية الثالثة ، وتنفجر فيه

السفارات ، وتندفع قوات الصاعقة إلى أكثر من أرض . . لا نفعل أكثر من أن نبلحق بفزع فى عناوين الصحف . وسعر الذهب ، ذلك البارومتر الحساس للمخوف ، يندفع فى حركته متجاوزاً كل السوابق . البنوك تهتز ، والتضخم ينفجر خارجاً عن إرادة الجميع . حكومات العالم انكمشت حركتها ، فوصلت إلى حالة أقرب إلى الشلل أو البلاهة . . فى هذا الوقت ، يتطلع رجل الشارع حوله قائلاً أن العالم قد فقد عقله . . بينما يشير المختصون إلى جميع الاتجاهات والمؤشرات الحالية ، باعتبار أنها تقود العالم إلى كارثة ! ! » .

« هذا الكتاب يقدم رؤية مختلفة تماماً . . إنه يؤكد أن العالم لم ينجرف نحو الجنون . . وأنه وراء الأحداث التى تبدو بلا معنى ، تكمن أشكال مدهشة للحياة ، زاخرة باحتمالات الأمل » .

احتضار المجتمع الصناعى

وهو يصر على أن التغيرات التى تحدث فى عالم اليوم ، لا يمكن النظر إليها كلاً على حدة باعتبارها منفصلة لا ترتبط ببعضها . وأن هذه التيارات ليست عشوائية ، ولا تحدث بمجرد الصدفة . . وهو ينظر إلى أحداث مثل انفراط عقد الأسرة الكبيرة التى كانت تضم الأبناء والأحفاد والأعمام والأخوال ، وأزمة الطاقة العالمية ، وشيوع العقائد والعبادات والجماعات الغريبة ، وظهور تليفزيون الكابل الذى يتصل سلكياً بمحطة البث التليفزيونى ويخلق صلة متبادلة بين المحطة والمتفرج ، وانتشار الحركات

الانفصالية من كويبيك إلى كورسيكا . . ينظر إلى كل هذه الظواهر والأحداث كعناصر متكاملة فى صورة الواقع ، وليس كأحداث معزولة عن بعضها . . وهو يعتقد أنها جميعاً جوانب مترابطة فى ظاهرة أكبر ، هى ظاهرة احتضار المجتمع الصناعى ، وبزوغ شمس حضارة جديدة .

فغياب إطار الرؤية عند التصدى لفهم تصادم القوى فى عالم اليوم، يجعلنا أشبه ببحارة المركب الذى وقع تحت رحمة العاصفة ، يحاولون أن يسيروا مركبهم وسط الصخور الخطيرة ، دون بوصلة أو خارطة . ويساعد على هذا الضياع ، أننا فى ثقافة تطاحن التخصصات ، نغرق فى شذرات المعلومات المتفتتة المتشظية ، والتحليلات الجزئية الأنيقة ، ولهذا فإن مهمة التجميع والتوليف والربط بين هذه العناصر المختلفة لا يصبح فقط مفيداً ، بل واجباً حيوياً لا غنى عنه .

من خلال جهد الجمع والتركيب والتوليف الذى قام به توفلر لشظايا المعلومات والمعارف المتنافرة ، استطاع أن يرسم صورة الحضارة القادمة التى نعيش اليوم بداياتها الأولى . وهو يصفها قائلاً : « إن هذا الحضارة على درجة من الثورية الشاملة ، تجعلها قادرة على تحدى كل افتراضاتنا القديمة ، إن الطرق القديمة فى التفكير ، والنظريات والمذاهب والأيديولوجيات القديمة ، مهما كان مدى انتشارها ، أو مدى فائدتها لنا فى الماضى . . لن تعود مناسبة لحقائق اليوم » .

حضـارة باهـرة

فى فصل من فصول كتاب الموجة الثالثة يحمل اسم « الصراع الفائق » ، يقول توفلر :

« تتخلق اليوم حضارة جديدة فى حياتنا . . وفاقد والبصر فى كل مكان يحاولون أن ينكروا مظاهرها ، هذه الحضارة الجديدة تحمل معها أشكالاً جديدة للأسرة ، وطرقاً متغيرة فى العمل والحب والمعيشة ، تحمل معها اقتصاداً جديداً ، وصراعات سياسية من نوع جديد ، وفوق هذا وذاك تحمل أيضاً وعيا وإدراكاً جديدين . بعض جوانب هذه الحضارة يمكن أن تراه فى حياتنا اليوم . بل إن ملايين البشر بدأوا فى ضبط نسق حياتهم على إيقاعات المستقبل . . والبعض الآخر ، الذى يخاف المستقبل ينشغل بهروب عابث يائس إلى الماضى ، ويحاول الابقاء على حياة العالم المحتضر الذى أعطاهم حياتهم » .

« إن بزوغ فجر هذه الحضارة الجديدة هو أكبر حقائق عصرنا تفجراً . . إنه الحدث المركزى ، ومفتاح فهم السنوات القريبة القادمة ، إنه من الأحداث ذات التأثير العميق الذى لا يقل فى تأثيره عن موجة التغير الأولى التى تفجرت منذ عشرة آلاف سنة مضت ، باختراع الزراعة . . ولا يقل فى تأثيره عن الزلزلة التى أحدثتها الموجة الثانية بقيام الثورة الصناعية . . إننا أبناء التحول التالى ، أبناء الموجة الثالثة » .

وهو يقول إن ما تواجهه الإنسانية هو قفزة كمية إلى الأمام ، إنها تواجه

أعمق التغيرات الاجتماعية ، وأكثر عمليات الاصلاح خلاقية وفعالية على مدى العصور . من الضرورى أن نعرف ذلك ، ونعرفه بوضوح ، إننا نشارك فى تشييد حضارة باهرة جديدة ، من بدايتها الأولى . . وهذا هو معنى الموجة الثالثة الذى يقصده توفلر .

وهو يذكر أننا حتى اليوم مررنا بالتغيرات العظيمة التى جلبتها موجتان عظيمتان ، وكانت كل منهما تمحو الثقافات والحضارات السابقة ، وتحل محلها أساليب جديدة فى الحياة لم تكن مقبولة فى السابق . لقد استغرقت تغيرات الموجة الأولى ، الثورة الزراعية ، آلاف السنين لكى تستكمل عناصرها . أما الموجه الثانية ، ظهور الحضارة الصناعية ، فلم يستغرق أكثر من ثلثمائة سنة . واليوم ، وقد أصبح التاريخ أكثر تسارعاً ، من المرجح أن تندفع الموجة الثالثة عبر التاريخ ، لتكتمل عناصرها خلال بضع عشرات من السنين . ونحن ، الذين تصادف وجودهم على سطح الأرض فى هذه اللحظة المتفجرة ، سنشعر بالضغوط الكاملة للموجة الثالثة خلال سنوات حياتنا .

المتهلك

الموجة الثالثة التى يتحدث عنها توفلر . . ستؤثر على كل شخص وكل شىء . . ستمزق المواصفات الحالية للأسرة ، وتهز اقتصاديات العالم ، وتشيع الشلل فى نظمه السياسية الحالية ، وتهدم ما نتمسك به الآن من قيم . إنها قادمة لكى تتحدى كل علاقات القوى القديمة ، وكل المزايا والحقوق

الخاصة لصفوة هذه الأيام ، وتقدم الخلفية التى ستدور عليها صراعات القوى الرئيسية فى المستقبل .

ويرى أن الحضارة الصاعدة تتناقض كثيراً مع الحضارة الصناعية التى كنا نعيش فيها . هى فى تقديره حضارة تكنولوجية عالية ، وغير صناعية فى نفس الوقت . فستأتى الموجة الثالثة بطرق جديدة مبتكرة للحياة ، قائمة على مصادر طاقة متنوعة ومتجددة ، وعلى طرق فى الانتاج تجعل معظم خطوط الانتاج فى مصانع اليوم غير ذات جدوى ، سترسى أسساً عائلية جديدة لا تتسم بالمركزية ، وستفرز مؤسسات جديدة يمكن أن نطلق على الواحدة منها تعبير « الكوخ الالكترونى » ، وستعتمد على مدارس ومؤسسات مختلفة جداً عما نعرفه ، بل ستكتب لنا الحضارة الجديدة شفرة جديدة في السلوك . وستحملنا إلى ما هو أبعد من أنماط التوحيد القياسى ، والتزامن ، والمركزية . . وإلى ماهو أبعد مما نعرفه الآن من مركزية الطاقة والمال والقوة .

الحضارة الجديدة ، خلال تحديها القديم ، ستسقط البيروقراطيات ، وتقلل من دور الدولة ، وتفرز مايمكن أن يسمى الاقتصاديات شبه الحرة . إنها تحتاج إلى حكومات أكثر بساطة ، وأكثر فعالية . وتكون فى نفس الوقت أكثر ديموقراطية من الحكومات التى يعرفها العالم اليوم .

وأهم ما ستقدمه حضارة الموجة الثالثة هو تضييق الهوة بين المنتج والمستهلك ، لتخلق المنتج المستهلك ، أو ما يطلق عليه توفلر (المنتهلك)، والذي سيكون أساس اقتصاديات الغد . ويصل توفلر إلى قمة تفاؤله عندما يقول « إنها ستصبح أول حضارة حقيقية في التاريخ المعروف » .

رؤيتان للمستقبل

وهنالك صورتان متناقضتان تماماً للمستقبل تستوليان على خيال البشر حالياً .

فمعظم الناس ، إذا لم يبلغ بهم الأمر حد عدم التفكير في المستقبل أصلاً، يفترضون أن العالم الذى عرفوه سيبقى إلى الأبد كما هو ! . . إنهم يجدون صعوبة فى تصور طريقة أخرى مختلفة لحياتهم ، فما بالك بتصور حضارة جديدة تماماً . بالطبع هم يعلمون أن الأشياء من حولهم تتغير ، لكنهم يفترضون أن التغيرات التي تظهر اليوم ، ستمضى بطريقة ما إلى حال سبيلها ، وأن لا شىء يمكن أن يهز الإطار الاقتصادى أو البناء السياسى الذى تعودوا عليه . . إنهم ، باختصار ، ينظرون إلى المستقبل على اعتبار أنه مجرد استمرار للحاضر .

هذا النوع المسطح من التفكير يظهر لنا فى أشكال متعددة . فى أحد مستوياته يظهر كافتراض ، افتراض لم يسبق أن تم اختباره ، يكمن خلف القرارات التى يتخذها رجال الأعمال ، والمدرسون ، والآباء ، والسياسيون . وعلى المستوى الأكثر عمقاً يظهر هذا النوع المسطح من التفكير ، وقد ارتدى ثوباً من الاحصاءات ، والمعلومات الخارجة من العقول الألكترونية ، ورطانات المتنبئين بالمستقبل . وفى كل من المستويين ، يقود هذا التفكير إلى رؤية لعالم المستقبل تقوم أساساً على الفرامانات الصناعية للموجة الثانية ، مع تصور المزيد من رواجها وشيوعها وشمولها لأنحاء أوسع من كوكبنا .

وكانت هذه الظاهرة ، أو هذا النوع من التفكير ، يستفزنى عندما أقرأ

نتائج تقارير المجالس المتخصصة واللجان الوزارية حول مستقبل مصر سنة ٢٠٠٠ . فمعظم هذه التقارير تغفل أى تغير شامل محتمل فى حياة الإنسان على الأرض ، وتبحث مشكلة الاسكان مثلاً ، وكأن السنة الحالية بكل ما فيها ، ستتكرر عشرات المرات ، حتى نفيق وقد عبرنا إلى القرن القادم .

يقول توفلر إن الأحداث العالمية الأخيرة قد هزت ، وبشدة ، مدى الثقة فى هذه الصورة للمستقبل . ومع تلاحق الأزمات ، واحدة وراء الأخرى ، تحتل العناوين الرئيسية فى الصحف مع انفجار الوضع فى إيران ، وإعادة النظر فى مبادئ ماوتسى تونج ، ومع الارتفاع الصاروخى لأسعار البترول ، ومع معدلات التضخم المسعورة ، ومع انتشار الإرهاب ووقوف الحكومات موقف العاجز عن مواجهته ، مع كل هذا بدأت تشيع رؤية جديدة ـ أكثر إجداباً وعمقاً ـ وتكتسب شعبية واسعة ، فقد مالت نسبة عالية من البشر إلى الاعتقاد بعدم جدوى رسم صورة المستقبل لمجتمع اليوم ، ذلك لأنه ليس هناك أى مستقبل للبشرية ، وأن يوم القيامة قد حل بلا ريب ، وأصبح أقرب إلينا مما نتصور . وأن العالم قد بدأ فعلاً اندفاعه نحو نهايته المأساوية .

شلل الخيال والإرادة

قد تبدو هاتان الصورتان أو الرؤيتان للمستقبل ، عند النظرة الأولى ، غاية فى الاختلاف . ومع ذلك فهما تحدثان نفس الأثر السيكولوجى والسياسى . . إنهما تقودان معاً إلى حالة من الشلل فى الخيال والإرادة . .

فإذا كان مجتمع الغد هو ببساطة صورة مكبرة وأشمل لمجتمع اليوم ، فلن تكون بنا حاجة كبيرة إلى التهيؤ له . . ومن ناحية أخرى ، إذا ما كان هذا المجتمع مكتوباً عليه أن يحطم نفسه خلال حياتنا ، فليس هناك ما يمكننا أن نفعل من أجله . . وباختصار ، تقود هاتان الرؤيتان للمستقبل إلى حالة من الفردية والسلبية ، الأمر الذى يشيع الجمود والشلل .

هذا ، يجب علينا أثناء محاولتنا فهم ما يجرى حولنا ، ألا نقف عند حد أى من هذين الخيارين السطحيين ، فكرة نهاية العالم ، أو فكرة أن ما سيأتى به الغد هو المزيد مما هو موجود . فهناك طرق أخرى متعددة ، أكثر استثارة وإيجابية للتفكير فى الغد ، طرق تؤهلنا للمستقبل . . والأهم من ذلك تساعدنا على تغيير الحاضر .

وكتاب الموجة الثالثة لألفين توفلر يقوم على ما يسميه (الفرض الثورى) ويشرح ذلك قائلاً « برغم أن السنوات القادمة ، من المحتمل أن تجىء مشحونة بالهزات والانقلابات ، وربما بالعنف الذى يعم كل مكان ، فإننا لن نصل إلى تحطيم أنفسنا كلياً . . إن التغييرات التى تمر بنا ، والتى تهزنا بشدة ليست عشوائية بلا حساب ، بل إنها تشكل فى الحقيقة نمطاً محدداً ، يمكن تمييزه بوضوح . . إن ما يحدث يوحى بأن هذه التغييرات تراكمية فى طبيعتها ، وإنها تضاف إلى بعضها البعض ، لتصنع تحولاً عملاقاً فى طريقة حياتنا ، وعملنا ، ولعبنا ، وتفكيرنا . . وإن الاحتمال كبير فى وصولنا إلى مستقبل عاقل مرغوب فيه . ما أطرحه ، باختصار ، يبدأ بافتراض أن ما يحدث الآن ، لا يقل عن كونه ثورة عالمية ، وقفزة كمية فى تاريخ البشرية » .

صـــدر الموجـــة

ولا يكفى القول بأن التغيرات التى تواجهها ستكون ثورية . فقبل أن نتعامل مع هذه التغيرات ، أو نسيطر عليها ، نحتاج إلى طريقة جديدة فى التعرف عليها وتحليلها . . وبدون هذا ، سنجد أنفسنا ندور فى حلقة من الضياع .

ومن أقوى التناولات الجديدة فى هذا الصدد ، مايطلق عليه تعبير «التحليل الاجتماعى لصدر الموجة » . وهذا التناول ينظر إلى التاريخ كتابع للموجات المتدافعة من التغيير ، ويبحث عن الذى تحمله معها بداية كل موجة . . إنه يركز انتباهنا بدرجة أقل على تواصل التاريخ ، مع أهمية هذا ، وبدرجة أكبر على نقط الانفصال . . على كل ما هو جديد وطارئ ومتميز .

والتحليل الاجتماعى لصدر الموجة يبدأ بفكرة بسيطة جداً ، تقول إن الزراعة هى أول نقطة تحول فى تاريخ التطور الاجتماعى للبشرية ، وإن الثورة الصناعية كانت الاختراق الكبير الثانى . . وهو ينظر إلى كل منهما ، ليس كحدث مستقل متميز ، ولكن كموجة من التغيرات تتحرك بسرعة معينة .

قبل الموجة الأولى من التغيرات ، عاش معظم البشر فى جماعات ، مهاجرة فى الأغلب ، تحصل على طعامها بالتنقيب عنه ، أو بصيد السمك ، أو باقتناص الحيوانات ، أو بالرعى ، وفى زمن معين ، منذ حوالى عشرة آلاف سنة . بدأت الثورة الزراعية ، وزحفت فى بطء على أنحاء الكرة الأرضية ، ناشرة القرى والمستوطنات والأرض المزروعة ، وناشرة مع ذلك نمطاً جديداً فى الحياة .

ولم تكن الموجة الأولى قد استنفدت قواها بعد عند نهاية القرن السابع عشر ، عندما تفجرت الثورة الصناعية فى أوروبا ، بادئة الموجة العظيمة الثانية من التغييرات العالمية . هذه العملية الجديدة ـ عملية التصنيع ـ بدأت تتحرك بسرعة أكبر عبر الدول والقارات . وهكذا تتابعت موجتان منفصلتان ومتميزتان عن عمليات التغيير عبر العالم فى وقت واحد . وبسرعتين مختلفتين .

الشعور بتصادم الموجتين

واليوم ، خمدت الموجة الأولى فعلاً ، ولم يبق من آثارها سوى عدد من تجمعات قبلية فى جنوب أمريكا ، أو فى غينيا الجديدة مثلاً ، تجمعات تعتمد على الزراعة . لكن القوى الأساسية لتلك الموجة العظيمة الأولى قد تبددت الآن بشكل فعلى .

ومن ناحية أخرى ، انتهت الموجة الثانية من إحداث ثورة فى حياة أوروبا وأمريكا الشمالية ، وأجزاء أخرى من العالم ، خلال قرون قليلة ، ثم ما زالت فى حالة انتشار .

العديد من الدول بدأت تشعر الآن بالتصادم المتزامن لموجتين أو ربما ثلاث موجات تغير مختلفة . تتحرك كلها بمعدلات سرعة مختلفة ، وبدرجات متباينة من القوة .

الكمبيوتر وحبوب منع الحمل

ويحاول توفلر أن يضع تاريخاً تقريبياً لتتابع هذه الموجات ، فيقول إن عصر الموجة الأولى بدأ حوالى عام ٨٠٠٠ قبل الميلاد ، وساد الأرض بدون أى تحد ، حتى عام ١٦٥٠ ، وربما ١٧٥٠ . منذ هذا التاريخ فقدت الموجة الأولى عزمها ، بينما اندفعت الموجة الثانية بعد أن استجمعت قواها . وقد سادت الحضارة الصناعية ، التى هى وليدة الموجة الثانية . . سادت العالم بدورها ، حتى انكسرت حدتها هى الأخرى .

وقد بدأت نقطة التحول الجديدة فى أمريكا عام ١٩٥٥ ، فى الوقت الذى شهد انتاج الكمبيوتر على نطاق واسع . وشهد السفر بالطائرات النفاثة ، وحبوب منع الحمل ، والعديد من المبتكرات والمستحدثات . فى ذلك الوقت بالذات الموجة الثالثة تستجمع قواها فى الولايات المتحدة الأمريكية . ومنذ ذلك الوقت تتابع وصولها ، مع فوارق زمنية طفيفة ، إلى معظم الدول الصناعية الأخرى ، بما فى ذلك بريطانيا وفرنسا والسويد وألمانيا والاتحاد السوفيتى واليابان .

واليوم . . تترنح جميع دول التكنولوجيا المتقدمة من أثر التصادم بين الموجة الثالثة وبين اقتصاديات ومؤسسات الموجة الثانية المتكسرة الخامدة .

وضوح الرؤيـة . . ضمان

عندما تسود إحدى موجات التغيير مجتمعاً ما ، يسهل أن نميز بشكل نسبى شكل التطور فى هذا المجتمع مستقبلاً . . وقد استطاع الكثير من الكتاب والفنانين والصحفيين أن يستشعروا « موجة المستقبل » . وظهر أثر هذا فى العديد من كتاباتهم وأعمالهم . لذلك كان لدى العديد من المفكرين، وكبار رجال الأعمال والساسة ، وبعض الأفراد العاديين ، فى القرن التاسع عشر بأوربا فكرة واضحة سليمة فى أساسها عن المستقبل . لقد شعروا أن التاريخ يتحرك فى اتجاه النصر النهائى للصناعة على زراعة ما قبل الميكنة . وفى دقة ملموسة ، قالوا أيضاً بالعديد من التغيرات التى ستحملها معها الموجة الثانية : المزيد من التكنولوجيات العالمية ، المدن الأكبر ، المواصلات الأسرع . . التعليم الجماعى . . وهكذا .

وضوح الرؤية هذا ، كانت له تأثيراته السياسية المباشرة ، فقد أتاح للأحزاب والحركات السياسية أن تنسق مواقفها بالنسبة للمستقبل . ومن جانب آخر ، نظمت المصالـح الزراعيـة حركة مقاومة ضد التصنيع المقتحم ، وضد رؤساء الاتحادات والنقابات ، وضد مدن الخطيئة والاثم الناشئة فى أحضان الصناعة . . وفى نفس الوقت سعى العمال ومديرو المشروعات الصناعية إلى إحكام قبضتهم على مفاتيح القوة فى المجتمع الصناعى البازغ .

اختلاط التقدمى بالرجعى

وعلى العكس من هذا ، عندما يفاجأ مجتمع ما باصطدام موجتين أو أكثر من موجات التغيير ، لم يكتب الفوز النهائى والسيادة الكاملة لأى منها ، تتفتت وتتشرذم صورة المستقبل . ويصبح من أشق الأمور استنباط معنى التغيرات والصراعات الناشئة .

إن الاصطدام الناشئ عن صدر موجة مقتحمة يحيل حياتنا إلى محيط صاخب متلاطم ، حافل بالتيارات والعواصف الصاخبة ، التى تخفى وراءها حركة المد التاريخى الأكثر أهمية والأكثر عمقاً .

ويتحدث توفلر عن الوضع الحالى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وغيرها من الدول ، فيقول :

« إن التصادم الذى يحدث بين الموجتين الثانية والثالثة يخلق توترات اجتماعية ، وتناقضات خطيرة ، وتيارات سياسية جديدة وغريبة ، تمزق التقسيمات التقليدية للطبقات والأجناس والأحزاب . هذا التصادم يحيل المفردات السياسية التقليدية إلى مجرد لغو ، ويجعل من الصعب علينا أن نفرق بين التقدمى والرجعى ، وبين الأصدقاء والأعداء » .

ثم يحاول أن يفسر هذا ، فيقول إنه فى عديد من الدول ، حيث تنحاز الطبقة العاملة إلى السياسات « التقدمية » التقليدية ، كاعادة توزيع الدخل، نراها اليوم تقف موقفاً « رجعياً » بالنسبة لحقوق المرأة ، والهجرة ، والضرائب ، والاقليمية . وبصفة عامة يقف اليسار التقليدى

غالباً موقفاً رجعياً من المشاكل المثارة .

ويقول توفلر إن الزعماء والقادة ، من فاليرى جيسكار ديستان إلى جيمى كارتر (اللذين كانا فى السلطة عندما صدر كتاب الموجة الثالثة) ، يتبنون مواقف « محافظة » بالنسبة للاقتصاد ، ومواقف « تحررية » بالنسبة للفن وأخلاقيات الجنس وحقوق المرأة ، والتحكم فى البيئة . ولهذا ليس غريباً أن يغرق الناس فى دوامات الخلط هذه ، فيتوقفون عن محاولة تفهم ما يجرى فى عالمهم .

أما وسائل الاعلام ، فهى تكتفى بأن تقدم للجمهور تتابعاً لا ينتهى من أخبار المستحدثات ، والمتناقضات ، والصراعات ، والأحداث المختلطة . . القتل والخطف ، انطلاقات الفضاء ، سقوط وتهاوى الحكومات ، هجمات الفرق الانتحارية ، الفضائح . . تقدم ذلك كله بطريقة تبدو معها كل هذه الأحداث ، وكأنها أحداث متفرقة ، لا يربط بينها رابط .

رواج العلاج النفسى

هذا التفكك الواضح فى الحياة السياسية ، نجد له انعكاساً فى التفكك والانفصام الذى تتسم به شخصية الإنسان المعاصر . ولعل خير دليل على ذلك الثروات الهائلة التى يكونها المعالجون والأطباء النفسيون ، والسعى المتخبط للناس بين مختلف أساليب العلاج النفسى المتنافسة . . واندفاعهم إلى عبادات وعقائد غريبة ، أو غرقهم فى فردية مرضية . . نتيجة للاعتقاد

الشائع بأن الحاضر والواقع عبارة عن عبث وجنون ، أو على أحسن الفروض بلا معنى .

لكن هذا الاستخلاص أبعد ما يكون عن الحقيقة . . فهناك فى الحقيقة نظام خفى متميز يمكن أن نكشف عنه بمجرد أن نتعلم كيف نفرق بين تغيرات الموجة الثالثة ، وبين الظواهر المرتبطة بالموجة الثانية والتى تمضى فى طريق الاضمحلال . . إن فهم الصراعات الناشئة عن تصادم الموجات ، لا يعطينا فقط صورة لبدائل المستقبل ، ولكنه يزودها بصورة نافذة ، أشبه بصورة الأشعة السينية ، للقوى السياسية والاجتماعية التى تؤثر فينا . ذلك لأن التيارات المتعارضة الناشئة عن تصادم موجات التغيير تنعكس على عملنا ، وحياتنا العائلية ، ومواقفنا من الجنس ، ونمط أخلاقياتنا ، كما أن أثر التيارات المتعارضة يحدد اختياراتنا وأسلوب حياتنا .

يقول توفلر : « ذلك لأن معظمنا فى الدول الغنية يتأثر فى حياته الشخصية ، وتصرفاته السياسية بالموقف الذى يقفه : هل هو من أبناء الموجة الثانية الذين يحاولون إحياء النظام المتحضر والابقاء عليه ، أم هو من أبناء الموجة الثالثة الذين يسعون إلى بناء مختلف جذرياً ، أم هو خليط متناقض فى التبعية للموقفين » .

مقاعد الباخرة الغارقة !

إن الصراع بين أتباع الموجتين الثانية والثالثة ، هو فى الحقيقة ، مصدر التوتر السياسى الجوهرى الذى يؤثر فى مجتمعنا اليوم . وبرغم ما تبشر به اليوم الأحزاب المختلفة ، والتيارات السياسية المتعارضة . . فإن الحرب الدائرة بينها لاتخرج عن كونها نزاعاً حول « من الذى سيتمكن من اعتصار أكبر الفوائد من بقايا النظام الصناعى المحتضر . . إنهم يشتبكون فى عراك على كسب أكبر عدد من المقاعد على سطح عابرة المحيطات الغارقة «تيتانيك» ! »

والسؤال السياسى الأساسى المطروح الآن ، ليس هو من الذى يتحكم فيما بقى من أيام المجتمع الصناعى ، ولكنه : من الذى يشكل الحضارة الجديدة التى تتدعم عناصرها بسرعة لتحل محل الحضارة الصناعية ؟ .

المواجهة التى تقوم بين أصحاب المصالح فى الموجة الثانية وبين أبناء الموجة الثالثة أخذت تتصاعد وتسرى سريان الكهرباء فى الحياة السياسية لكل الدول . حتى دول العالم غير الصناعية . . قد أعيدت فيها رسم جميع خطوط القتال القديمة ، بحلول الموجة الثالثة .

ولكى نحدد الموقف الأسلم فى هذا الزمن الحرج ، علينا أن نميز بوضوح بين الظواهر المتصلة بالحضارة الصناعية الزائلة ، وبين تلك التى تسهل مقدم الموجة الجديدة ، علينا أن نفهم جيداً كلاً من القديم والجديد . . علينا أن نفهم النظام الصناعى للموجة الثانية ، الذى ولد فيه معظمنا . وأن نفهم أيضاً عناصر حضارة الموجة الثالثة التى سنعيش فيها نحن وأولادنا .

وهذا يتطلب منا أن نلقى نظرة أدق على التغيرات التى صاحبت الموجتين الأولى والثانية ، كتمهيد لنظرة أوضح على الموجة الثالثة . سنكتشف ، فيما يلى، أن حضارة الموجة الثانية لم تكن مجرد مكونات قفزت إلى السطح وتجمعت بالصدفة ، بل هى (نظام) له جوانبه المختلفة التى تبادلت التأثير فيما بينها، بطريقة يمكن التنبؤ بها . . وسنكتشف أن البنية الأساسية للحياة الصناعية كانت هى نفسها فى دولة بعد أخرى ، بصرف النظر عن اختلاف الميراث الثقافى. . أو الفوارق السياسية، أو تباين التوجهات الأيديولوجية . . وهى الحضارة الصناعية التى يقاتل الرجعيون ـ من اليمين واليسار ـ للابقاء عليها .

الفصل الثاني

الموجة الثانية ..
وراء الحرب الأهلية الأمريكية ،
والثورة الروسية . .

لكى نفهم الموجة الثالثة التى نعايش اليوم بداياتها ، والتى تتسارع فى تكاملها ، بحيث يرجح أن تصل إلى أوجها خلال عشرات السنين فقط وليس مئات السنين كما حدث فى الموجة الثانية الصناعية ، وليس آلاف السنين كما فى حالة الموجة الأولى الزراعية . لكى نفهمها جيداً ، لا بد لنا أن نتأمل الموجات السابقة ، ونرصد بدقة مرحلة اصطدام الموجة الثانية بالموجة الأولى ، لكى نتعرف على خصائص اصطدام الموجات . ثم علينا أن نرى كيف شكلت الموجة الثانية ، أو الحضارة الصناعية ، تفاصيل حياتنا على مدى مئات السنين ، وصبغت بطابعها كل مناحى النشاط الإنسانى ، لكى نتعرف على الطريقة التى ستتشكل حياتنا بها عندما تعبر الموجة الثالثة حياتنا .

عندما سادت الموجة الأولى ، وشاعت الحضارة الزراعية ، كان من الممكن تقسيم سكان العالم إلى قسمين : البدائيون ، والمتحضرون . كان البدائيون هم من لم تصلهم الثورة الزراعية ، يعيشون فى قبائل وتجمعات صغيرة ، ويعتمدون فى حياتهم على صيد الحيوانات والأسماك . أما المتحضرون فقد عاشوا حيث انشغل الإنسان بزراعة الأرض . وحينما ازدهرت الزراعة ،

وجدت الحضارات جذوراً لها . فقامت الحضارات واضمحلت ، وتحاربت واندمجت ، من الصين والهند ، إلى المكسيك ، إلى اليونان وروما .

ووراء الاختلافات الشديدة التى تظهر بين هذه الحضارات ، توجد دائماً أوجه شبه أساسية . . فى كل منها كانت الأرض هى أساس الاقتصاد والحياة والثقافة ونمط الأسرة والنشاط السياسى . وفى كل منها كانت الحياة تنظم حول القرية . . وساد كل منها تنظيم بسيط للعمل ، وتبلورت فئات وطبقات محدودة : النبلاء ، ورجال الدين ، والمقاتلون ، وأقنان الأرض والعبيد . وفى كل منها كانت السلطة شاملة ، يخضع الفرد خضوعاً كاملاً لمصلحة الجماعة . وفى كل منها كان مولد الإنسان يحدد وضعه فى الحياة ، وكان الاقتصاد غير مركزى ، بمعنى أن كل مجتمع كان ينتج معظم احتياجاته .

بالطبع كانت هناك بعض الاستثناءات فالحياة لا تحتمل مثل هذا التبسيط . فقد نشأت وسط ذلك حضارات تجارية ، خاض بحارتها أنحاء البحار ، كما نشأت ممالك مركزية للغاية حول نظم الرى العملاقة .

الثورة الصناعية

وعندما سادت الحضارة الزراعية ، ظهرت إرهاصات الحضارة التالية . فقد وجدت بعض المصانع البدائية للانتاج على نطاق واسع فى بلاد اليونان وروما . كذلك جرى ضخ البترول فى إحدى جزر اليونان عام ٤٠٠ قبل الميلاد ، وفى بورما عام ١٠٠ ميلادي . وقد انتعشت بيروقراطيات واسعة فى بابل ومصر . . وشيدت مدن كبيرة فى آسيا وأمريكا الجنوبية . وتقاطعت الطرق عبر الصحارى والمحيطات ووسط الجبال . ولكن هذه الإرهاصات

كانت تبدو كغرائب وعجائب لا يجمعها كيان واحد .

كان ذلك هو العالم الذى تفجرت فيه الثورة الصناعية .

كانت الصناعة أكثر من مجرد مداخن وخطوط تجميع . . كانت نظاماً اجتماعياً خصباً له أكثر من وجه ، أثر على كل جوانب الحياة البشرية ، وهاجم كل معالم الموجة الأولى .

وعند انتشار الموجة الثانية عبر المجتمعات أثارت حرباً شعواء بين المدافعين عن الماضى الزراعي، وبين رواد المستقبل الصناعي. والتصادم العنيف بين الموجة الأولى والموجة الثانية ، أزاح فى طريقه ، بل وأهلك فى أغلب الأحيان من أسميناهم بالبدائيين .

الأسباب الحقيقية

ويرى الفين توفلر أن الحرب الأهلية الأميركية لم تنشب أساساً كما يخيل للجميع ، حول مبدأ أخلاقى هو موضوع العبيد والعبودية ، أو حول موضوع الرسوم والتعريفات . لقد نشبت لتحسم سؤالاً اكثر أهمية : هل يحكم القارة الغنية الجديدة الفلاحون أم الصناعيون ؟ هل تنشأ الحضارة الأميركية على أساس الموجة الأولى أم الموجة الثانية ؟ وبمجرد انتصار جيوش الشمال ، حسمت القضية ، وتأكد المستقبل الصناعى للولايات المتحدة . . وتكرر نفس الشيء فى اليابان عام ١٨٦٨ ، بإلغاء الاقطاع ، وتبنى أساليب الحياة الأوروبية .

كما يرى توفلر أن الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، كانت مناظرة للحرب

الأهلية الأميركية . ويرى أنها قامت أساساً من أجل إرساء الحضارة الصناعية ، أكثر مما قامت للسبب الشائع وهو تسييد النظام الشيوعى . وأن الصدام بين الموجة الأولى والموجة الثانية انتقل من بلد إلى بلد بنفس الطريقة ، تصاحبه الأزمات السياسية والانقلابات والاضطرابات والحرب . وأنه عندما وصلنا إلى منتصف القرن العشرين ، كانت قوى الموجة الأولى قد تبددت ، وسادت حضارة الموجة الثانية أنحاء العالم .

وبرغم ما بين مجتمعات الموجة الثانية من خلافات فى اللغة والثقافة والتاريخ والبنية السياسية . تلك الخلافات التى بلغ من عمقها أن نشبت بسببها الحروب برغم هذا فإنها تشترك جميعاً فى سمات أساسية عامة واحدة . ولكى نفهم تصادم موجات التغيير الذى نعيشه هذه الأيام ، لا بد أولاً أن نحدد بوضوح البناء المتوازى لكل الدول الصناعية ، والمخطط الخفى الثابت لحضارة الموجة الثانية . لأن هذا المخطط بالذات هو الذى تنقض عليه قوى الموجة الثالثة .

البطاريات الحية

أساس أية حضارة ، قديمة أم حديثه هو الطاقة . .

وقد استمدت مجتمعات الموجة الأولى طاقتها مما يطلق عليه توفلر تعبير «البطاريات الحية » ، يعنى بذلك القوة العضلية للانسان والحيوان ، وبالإضافة إلى طاقة الشمس والرياح والأنهار .

وعلى العكس من ذلك ، استمدت جميع مجتمعات الموجة الثانية طاقتها

من الفحم والغاز وزيت البترول ، وهي نتاج حفريات لا تتجدد . وهذا يعني أنه منذ الخطوة الثورية التي نمت باختراع الالة البخارية عام ١٧١٢ ، بدأت الحضارة ـ لأول مرة ـ تأكل من رأس مال الطبيعة وليس من أرباحها ونواتجها . اندفعت الدول الصناعية تبني وتشيد وتصنع وتتقدم ، وفقاً لافتراض يقول أن وقودها الرخيص سيظل متوفراً إلى الأبد .

والقفز إلى نظام جديد للطاقة ، كان موازياً له في الحضارة الصناعية تقدماً عملاقاً في التكنولوجيا . فبينما اعتمدت الموجة الأولى على بعض الابتكارات البسيطة التي استهدفت مضاعفة تأثير العضلات البشرية والحيوانية ، كالروافع والأوناش والمقاليع ، دفعت الموجة الثانية بالتكنولوجيا إلى مستوى جديد تماماً . لقد أعطت الموجة الثانية للتكنولوجيا أعضاء حس كاملة ، مما أتاح صناعة آلات تسمع وترى وتلمس بدقة أكبر وكفاءة أعلى من إحساس الإنسان .

ومن المراكز الصناعية المتطورة ! تدفقت ملايين المنتجات المتطابقة ، وهكذا فتحت التكنولوجيا المتقدمة ، والتي تعتمد على الطاقة الجديدة ، الأبواب إلى الإنتاج على نطاق واسع .

المجال التكنولوجي

ولم يكن للانتاج على نطاق واسع أي معنى ، مالم يحدث تغيير أساسي في نظم التوزيع .

في مجتمعات الموجة الأولى كانت البضائع تنتج عادة بأساليب يدوية . . وكانت تنتج قطعة بعد قطعة ، وبنفس الطريقة كان يجرى توزيعها .

إلا أن الموجة الثانية أحدثت انقلاباً جذرياً فى مسألة التوزيع والتسويق . ومن أجل هذا شقت الطريق ، ومدت خطوط السكك الحديدية وحفرت القنوات . ومع الصناعة والانتاج على نطاق واسع ، ظهرت محلات ومراكز البيع الكبرى لأول مرة ، وظهرت بالتبعية وظائف جديدة لشبكة عمال البيع ، وبائعى الجملة ، والوكالات والسماسرة ، ومندوبى الصناعات .

والمجال التكنولوجى للموجة الثانية ، اقتضى « مجالاً اجتماعياً » يلائمه ، ويكون على نفس المستوى من الثورية . وقد فرض هذا أشكالاً جديدة تماماً من التنظيمات الاجتماعية .

سقوط السلطة الأبوية

قبل الثورة الصناعية ، كانت أشكال الأسرة تختلف من مكان إلى مكان ، لكن ما من مكان وصلت إليه الزراعة ، إلا ومال الناس فيه إلى العيش فى بيت كبير يضم عدة أجيال من الأسرة ، بما فى ذلك الأقرباء والأنسباء . وكان الكل يعمل كوحدة إنتاجية اقتصادية واحدة . وعندما بدأت الموجة الثانية تجتاح الأرض التى كانت الموجة الأولى تحتلها ، شعرت العائلات بضغوط التغيير ، وتلقت السلطة الأبوية ضربة محسوسة ، وتغيرت العلاقات بين الآباء والأبناء .

ومع تحول الانتاج الاقتصادى من الحقل إلى المصنع ، لم تعد تعمل معاً كوحدة . وحتى يتفرغ العامل للانتاج فى المصنع ، حلت محل الوظائف

الأساسية فى الأسرة مؤسسات متخصصة جديدة . فأوكل تعليم الأطفال إلى المدارس ، والاهتمام بكبار السن ورعايتهم إلى الملاجئ وبيوت العجزة أو المصحات . والأهم فى ذلك ، تطلب المجتمع الجديد القدرة على انتقال العامل من مكان إلى مكان . ومع الهجرة إلى المدن ، وتحت وطأة الاضطرابات الاقتصادية المصاحبة للتغيير تخلصت العائلة من الأقارب ، ووصل الأمر إلى ما يطلق عليه « الأسرة النووية » ، والتى تتكون من الأب والأم وعدد قليل من الأبناء . انسحب هذا على المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية فى نفس الوقت . حتى فى اليابان ، حيث عبادة الأجداد ، وحيث المكانة الخاصة للعائلة ، بدأ ظهور الأسرة النووية مع تزايد المد الصناعى .

المدرسة ـ المصنع

ومع خروج العمل من الحقل والبيت ، كان من الضرورى إعداد الأبناء للعمل فى المصنع .

وتمخض عن هذا هيكل مركزى آخر فى مجتمعات الموجة الثانية ، ألا وهو التعليم الجماعى ، فأقيمت المدارس على شكل المصنع التى تخرج التلاميذ . وكان على التعليم العام الجماعى أن يلقن التلاميذ أساسيات القراءة والكتابة والحساب ، وشيئاً من التاريخ والموضوعات الأخرى .

لكن خلف هذا المنهج الظاهر ، كان هناك منهج خفى أكثر أهمية .

هذا المنهج الخفى تضمن ـ وما زال يتضمن ـ فى جميع الدول الصناعية ثلاثة دروس هامة : التدرب على الالتزام بالمواعيد ، وطاعة الرئيس ،

والتعود على العمل المتكرر . والسر فى هذا هو أن العمل فى المصنع يتطلب عمالاً يصلون إلى عملهم فى الوقت المحدد ، خصوصاً أولئك العمال الذين يعملون على خطوط التجميع ، كما يتطلب عمالاً يتلقون التعليمات من رؤسائهم وفقاً للتسلسل الوظيفى ، فيطيعونها دون تساؤل أو استفسار . ويحتاج إلى رجال ونساء على استعداد للعمل كعبيد للآلة أو المكتب ، يقومون بالعمل المتكرر كل يوم ، دون احتجاج أو تذمر .

وبصفة عامة ، كونت الأسرة النووية مع نظام التعليم الشبيه بنظام المصنع ، شكلاً متكاملاً لإعداد الصغار لكى يحتلوا أماكنهم بكفاءة فى المجتمع الصناعى . . وهنا أيضاً تشابهت مجتمعات الموجة الثانية فى الدول الرأسمالية كما فى الدول الشيوعية ، وفى دول الشمال كما فى دول الجنوب .

الشركات الكبرى

وقد ظهرت فى مجتمعات الموجة الثانية مؤسسة ثالثة ، ساعدت على تقوية نفوذ المؤسستين السابقتين ، الأسرة النووية ، والمدرسة ـ المصنع ، وكانت تتمثل فى الاختراع الجديد المعروف باسم « الشركة » . . فقبل هذا ، كان العمل مملوكاً للفرد أو الأسرة أو لمجموعة من الشركات ، لكن لم تكن الشركات الكبرى ذات رءوس الأموال الضخمة معروفة فى حياة الناس . ولذا كانت هناك بعض الشركات خلال الموجة الأولى . فقد كانت نادرة للغاية .

لقد اقتضى الانتاج على نطاق واسع خلال الموجة الثانية ، تجمعاً عملاقاً لرأس المال ، أكثر مما يستطيع شخص أو مجموعة أشخاص توفيره .

وفي عام ١٩٠١ ظهرت في أمريكا أول شركة رأسمالها بليون دولار وكانت شركة « الصلب للولايات المتحدة » . وما أن حل عام ١٩١٩ ، حتى ظهرت ست شركات أخرى بهذه الضخامة . وأصبحت الشركات الكبرى واتحاد الصناعات سمتين ثابتتين للحياة الاقتصادية في الدول الصناعية . سواء كانت رأسمالية أو شيوعية . وقد اختلف شكل ذلك في الدول الشيوعية . ولكن بقي الأمر واحداً من وجهة النظر التنظيمية .

من موسيقى الحجرة إلى السيمفونية

حول هذه المؤسسات الجوهرية الثلاث نشأت مجموعات من التنظيمات : الوزارات الحكومية ، النوادي الرياضية ، الكنائس ، الغرف التجارية ، النقابات ، التنظيمات الحرفية ، والأحزاب السياسية ، والمكتبات ، الروابط العرقية ، الفرق الترفيهية ، وآلاف غيرها .

للنظرة الأولى ، قد يوحي تنوع هذه التنظيمات بالعشوائية ، وبأنها وليدة الصدفة ، لكن عند تأملها ، يمكن أن تكتشف العلاقات الخفية بينها . فخلال الموجة الثانية ، وفي دولة بعد أخرى ، كان المبتكرون الاجتماعيون ، الذين يقتنعون بأن نظام المصنع هو أكثر النظم كفاءة في الانتاج ، يحاولون أن يطبقوا هذه القناعة على كل التنظيمات الاجتماعية الأخرى . وهكذا أخذت المدارس والمستشفيات والسجون والمكاتب الحكومية . . وغيرها من التنظيمات ، تستمد خصائصها من خصائص المصنع : تقسيم العمل والبناء الوظيفي المتسلسل والالتزام البارد بكل ما هو غير شخصي .

وحتى الحياة الفنية يمكن أن نجد فيها تطبيقاً لبعض مبادئ المصنع ، فبدلاً من العمل تحت رعاية حاكم أو كفيل كما كان الحال فى المجتمع الزراعى ، وقع الموسيقيون والمصورون والممثلون والكتاب تحت رحمة السوق . وهكذا بدأ الفنان يقدم انتاجه لمستهلك مجهول . وبالتبعية تغيرت أسس الانتاج الفنى .

ويعطى توفلر مثلاً بالموسيقى ، حيث أوجبت مقتضيات المجتمع الصناعى تحول موسيقى الحجرة إلى موسيقى سيمفونية . ويقول إن تقسيم الفرقة الموسيقية خضع لنفس تقسيمات العمل فى المصنع . ويقول إن تاريخ الأوركسترا يقدم مجرد صورة للعديد من الصور التى كونت المجال الاجتماعى للموجة الثانية الذى يتمشى وينسجم مع المجال التكنولوجى لها .

إلا أن الحضارات لا تعتمد فقط على هذين المجالين ، وتحتاج بالإضافة إليهما مجالاً إعلامياً ، لإنتاج وتوزيع المعلومات . وفى هذا المجال أيضاً جاءت التغييرات التى أحدثتها الموجة الثانية ملفتة للغاية .

ثورة المكاتب البريدية

كل المجتمعات البشرية . منذ العصور البدائية وحتى اليوم ، تعتمد فى الاتصال على الاتصال المباشر بين شخص وشخص . . لكن الأمر اقتضى نظاماً خاصاً لتبادل الرسائل عبر الزمان والمكان . وقد ابتكرت الحكومات المختلفة عدة طرق للاتصال ، عن طريق الأبراج ، والعدائين والحمام الزاجل ، والنار والطبول .

أثناء حضارة الموجة الأولى ، كانت هذه الامكانيات مقصورة على الأغنياء والأقوياء فقط . إلا أن الموجة الثانية ، فى مرورها على دولة بعد أخرى ، حطمت ذلك الاحتكار فى مجال الاتصالات ، ليس لأن الأغنياء والأقوياء قد أصبحوا أقل أنانية ، بل لأن تكنولوجيا الموجة الثانية ، وإنتاج مصانعها الذى جرى على أوسع نطاق ، تطلب حركة ضخمة للمعلومات ، لم يكن من الممكن أن تفى بها القنوات القديمة .

ولهذا ، ما إن وصلت حركة الموجة الأولى إلى أوجها ، حتى تسابقت الدول لإنشاء مكاتب الخدمة البريدية ، التى وفرت أول قناة واسعة للاتصالات فى عصر الصناعة . إلا أن الاحتياج المتزايد بشدة لتبادل المعلومات فى المجتمع الصناعى ، لم تكن تلبيه الكلمة المكتوبة . . وهكذا تم اختراع التليفون والتلغراف فى القرن التاسع عشر .

شراء وبيع الأرواح

لهذا ، تنامى فى كل المجتمعات الصناعية ، رأسمالية واشتراكية ، نظام متطور من قنوات الاتصال التى تخدم المجال الإعلامى ، يتم عن طريقها توزيع الرسائل الشخصية والجماهيرية ، بنفس الكفاءة التى يتم بها توزيع المنتجات أو المواد الخام . وهذا النظام الإعلامى يساند ويخدم المجال التكنولوجى ، والمجال الاجتماعى ، بهدف إحداث نوع من التكامل بين الإنتاج الاقتصادى والسلوك الشخصى .

مثل هذا النظام مرجعه إلى الفصل بين الإنتاج والاستهلاك . فالحاجة إلى

السوق ، التى تقوم بدور عامل السويتش لإعادة الربط بين المستهلك والمنتج ، تضع بالضرورة أولئك الذين يتحكمون فى السوق فى وضع قوة غير مبرر ، برغم كل ما يسوقونه من أدلة وبراهين لتبرير قوتهم .

والفجوة التى بين دور المنتج ودور المستهلك ، خلقت بالتبعية ازدواجاً فى الشخصية عند الفرد . فنفس الشخص الذى لقنته عائلته ومدرسته ورئاسته ، باعتباره منتجاً ، أن يدين بالولاء ، وأن يكون منضبطاً مطيعاً ، وأن يتعود العمل من خلال فريق . . نفس هذا الشخص تم تلقينه باعتباره مستهلكاً أن يبحث عن المتعة العاجلة ، وأن يقيم الأشياء على أساس ما توفره له من لذة ، ولوكان ذلك على حساب أى تقييم لإمكانياته المالية ، وألا يخضع لأى نظام ، وأن يسعى وراء المباهج الفردية . . وباختصار ، تم تلقينه أن يكون شخصاً مختلفاً بالمرة .

المبادئ الستة

لكل حضارة قوانينها أو شفرتها الخفية ، والتى تخضع لها كل النشاطات خضوعاً مطلقا . ومع سيادة الحضارة الصناعية ، أصبح من الممكن اكتشاف مبادئها الستة ، التى تحكم حياة الملايين ، والتى جاءت نتيجة للفصل بين الانتاج والاستهلاك . . وهى المبادئ التى يدافع عنها حالياً أبناء الموجة الثانية . ويتحداها ويهاجمها أبناء الموجة الثالثة . . وهذه المبادئ هى :

- التوحيد القياسى أو النمطية .
- التخصيص الشديد .

- التزامن ، وضبط توقيت حدوث الأشياء .
- التركيز فى الكيانات الصناعية والاقتصادية والحياة بشكل عام .
- فلسفة السعى نحو الحدود القصوى فى كل شىء .
- المركزية الشديدة .

وأشهر معالم الموجة الثانية هو التوحيد القياسى أو النمطية . فالمجتمعات الصناعية تفرز ملايين المنتجات المتطابقة التى على نفس النمط إلا أن مبدأ النمطية يتجاوز المنتجات الصناعية لينسحب على كل شىء فى حضارة الموجة الثانية . . نظم العمل ، حياة الإنسان ، وغير ذلك من أوجه النشاط . ومن الأقوال المأثورة لفريدريك وينسلو تيلور ، منظّر النمطية والتوحيد القياسى فى المجتمع الصناعى : هناك طريقة (قياسية) أفضل لأداء كل وظيفة ، وأداة (قياسية) أفضل لإنجاز هذه الوظيفة بها ، وزمن (قياسى) لإتمام هذه الوظيفة . وبهذه المقولة أصبح تيلور رائداً فى علم الإدارة ، ووضعه سدنة الحضارة الصناعية فى مصاف فرويد وماركس وفرانكلين .

وقد أبدى الماركسيون حماساً شديداً لمبدأ النمطية والتوحيد القياسى . فحض لينين على أساليب تيلور ، وتطبيقها فى الانتاج الاشتراكى . يقول ألفين توفلر « . . ولينين أيضاً باعتباره رجل صناعة أولاً ، وشيوعياً ثانياً ، كان مؤمناً بالقياسية متحمساً لها . . » .

وفى نفس الوقت تلعب وسائل الإعلام الجماهيرى دوراً هاماً فى تكريس

صورة التوحيد القياسى ، عندما يقرأ أو يرى ملايين البشر، فى نفس الوقت، نفس الإعلانات ونفس الأخبـار ، ونفس القصص القصيرة . وقد أدى هذا إلى اختفاء العديد من اللهجات الإقليميـة والمحلية ، بل وبعض اللغات . وبالتـدريج تصبغ أساليب التوحيد القيـاسى كل شـىء فى الدولـة بنفس الصبغـة ، نفس محطـات خدمـة السيارات ، نفـس طراز المبـانى ، نفـس المطاعـم العامـة . وقد اقتضـى هذا أيضـاً توحيـداً قياسيـاً لوحـدات قياس الأطوال والأوزان ، وللعملات النقدية المستخدمة .

انقضاض الاخصائيين

المبدأ الهام الثـانى الذى شـاع فى جميع مجتمعات الموجـة الثانية هـو مبدأ التخصص .

فمع تزايد تقسيم مراحل العمل ، استبدلت الموجة الثـانية ابن المجتمع الـزراعى القـادر على القيام بعـدة أعمال متنـوعة ، بصـاحب الاختصـاص الضيق ، وبالعامل الذى يؤدى عملية واحدة محدودة ، ويظل يكررها طوال حياتـه . وهكذا قـام الصرح الصناعى على التخصـص الشديـد . ورغـم أن نقاد النظام الصنـاعى قد أدانوا هـذا ، لأنه يشكل ضرراً متزايـداً على بشرية العامل وإنسانيته ، إلا أن التخصص شديد الضيق ظل هو الشعار السائد .

وعندما بـدأ هنرى فورد إنتاج طـراز خاص من سيارتـه عام ١٩٠٨ بلغ عدد العمليات المتخصصـة الداخلة فى إنتاج السيـارة ٧٨٨٢ عملية . وقال فورد فى مـذكراتـه . إنه من بين هـذه الوظـائف تحتاج ٩٨٩ وظيفـة منها إلى

رجال أقوياء قادرين من الناحية الجسدية ، وتحتاج ٣٣٣٨ إلى ذروة القوة الجسدية العادية من الرجال . وإن معظم الوظائف الباقية يمكن أن يقوم بها أطفال ونساء ، واستطرد يقول ببرود غير إنسانى « ولقد وجدنا أنه من الممكن شغل ٦٧٠ وظيفة برجال مقعدين ، و٢٦٣٧ وظيفة بذوى ساق واحدة من الرجال ، وهناك وظيفتان يمكن إسنادها إلى عاملين بلا ذراعين ، و ٧١٥ برجال ذوى ذراع واحدة ، وأخيراً ١٠ وظائف يمكن أن يشغلها رجال من فاقدى البصر . . » . وهكذا يمكننا أن نرى كيف يقود التخصص فى الوظائف إلى اعتبار الإنسان مجرد أجزاء !

ولم يقتصر مبدأ التخصص هذا على الدول الرأسمالية ، بل أصبح عنصراً هاماً فى صناعات الدول الاشتراكية . وقد واكب نظام التخصص هذا ، فى الشرق والغرب ، موجة صاعدة من الاخصائيين الذين يتحكمون فى كل عمليات النشاط ، مما يدفع رئيس لجنة التجارة الفيدرالية بالولايات المتحدة الأمريكية إلى أن يقول « لقد استولى الاخصائيون على حضارتنا . . وهم يطلقون علينا تعبير (العملاء) ، ويحددون لنا (احتياجاتنا) » . . وحتى عملية الإثارة والتهييج السياسى أصبح لها اخصائيوها ، فقال لينين إن الجماهير لا يمكنها أن تحقق الثورة بغير مساعدة الاخصائيين . وتحدث عما أسماه « تنظيم الثوريين » ، والذى تقتصر عضويته على الأشخاص الذين يتخصصون فى العمل الثورى .

الـزمـن = المـال

والانفصال بين الانتاج والاستهـلاك قاد إلى فرض تغير فى الطريقـة التى يتعامل بها إنسان الموجة الثانية مع الزمن .

ففى النظام الاجتماعى الذى يعتمد السوق ، سواء كانت السوق مخططة أم حرة ، يصبح الزمن معادلاً للمال ، فليس من الممكن ترك الالات الغالية خامدة ، ويجب أن تعمـل وفقاً لإيقـاعها الخاص . وهكـذا ، تبلور المبدأ الثالث للحضارة الصناعية وهو : التزامن .

وبعد انتشار المصانع ، ومع التكلفـة العالية لـلآلات ، واعتمادها على العمال ، اقتضى الأمر أنظمـة أشد دقة فى ضبط الوقت ، وحسـاب التزامن بين العمليات المختلفة . لأنه إذا تخلفت مجموعة من العمال عن إنجاز عمل معين فى وقت محدد ، ترتب على ذلـك تعطل عمـل مجموعـات أخرى مـن العمال . وهكذا ظهرت أهميـة ساعات اليد ، والمنبه ، وساعات الحائط فى العمـل . وليـس مـن قبيـل الصـدفـة ، أن يلقـن الأطفـال فى المجتمعـات الصناعية معرفة الوقت عن طريق جرس المدرسة . فالذى يدخل الفصل فى الوقت المحـدد ، يتعـود على أن يدخـل بعد ذلـك المصنـع أو المكتب فـى موعده .

ثقافة لينين العملاقة

وظهور السوق كوسيط بين المنتج والمستهلك ، دفع إلى الوجود بمبدأ ثالث من مبادئ حضارة الموجة الثانية ، وهو مبدأ التركيز .

تركيز السكن في المدن الكبيرة حول مراكز النشاطين الصناعى والتجارى ، وتركيز المجرمين في السجون ، والعجزة في الملاجئ ، والتلاميذ في المدارس . . بالضبط كما يجرى تركيز وتجميع العمال في المصانع . . وأيضاً تركيز رءوس الأموال في شركات كبرى واحتكارات عظيمة .

وقد اقتنع بهذا المبدأ ، وسار على هداه . . المديرون في الدول الاشتراكية ، وقالوا إن تركيز الانتاج يضاعف كفاءته . وتكلم لينين عن « تحويل جميع المواطنين إلى عمال وموظفين في نقابة عملاقة . هي الدولة بأكملها » . وبعد ذلك بخمسين سنة ، قال عالم الاقتصاد السوفياتى ليليو كينا « إن الاتحاد السوفياتى يمتلك أكبر صناعة مركزة في العالم » .

كما خلقت الهوة بين الانتاج والاستهلاك في مجتمعات الموجة الثانية حالة من عشق الضخامة وكل ما هو هائل كبير. وساد زعم يقول إن « الضخامة » مرادف « للكفاءة » . وهكذا أصبح السعى نحو الوصول إلى الحدود القصوى أو العليا ، المبدأ الخامس للحضارة الصناعية .

عشق الضخامة

بهذا المنطق ارتفعت ناطحات السحاب وأقيمت أضخم السدود ، وشيدت أوسع الملاعب . وفى عام ١٩٦٠ ، كانت شركة جنرال موتورز الأميركية تستخدم ٥٩٥ ألف موظف . وفى نفس العام كانت شركة الخدمات التليفونية تستخدم ٧٣٦ ألف رجل وامرأة ، ثم أصبحت فى عام ١٩٧٠ تستخدم ٩٥٦ ألفاً . ونفس الأمر سارت عليه حكومات ألمانيا وبريطانيا وغيرهما من الدول الصناعية ، عن طريق اندماج الشركات الصغيرة فى شركات كبيرة ، بزعم أن هذا سيتيح لهذه الدول أن تتحدى العملاق الأميريكى .

وعشق الضخامة والسعى نحو الحدود القصوى ، لم يكن فقط بدافع الحصول على الحدود القصوى من الأرباح . فقد ربط ماركس بين « زيادة حجم المنشآت الصناعية »، وبين « زيادة نمو القوى المادية لهذه المنشآت». كما قال لينين « إن المؤسسات والائتمانات والنقابات الضخمة قد أوصلت أساليب الانتاج على نطاق واسع إلى أقصى مستويات النمو والتطور » . وكان أول أوامره بعد قيام الثورة السوفياتية هو دمج الحياة الاقتصادية الروسية فى أقل عدد ممكن ، من أكبر الوحدات الممكنة .

المركزية كفن رفيع !

وأخيراً . . سعت كل الدول الصناعية إلى تطوير المركزية ، حتى أصبحت من الفنون الرفيعة ! يقول ألفين توفلر « كان على مديرى السكك الحديدية الأول ، شأنهم شأن مديرى برامج الفضاء حالياً ، أن يبتكروا أساليب جديدة ، فقاموا بعمل توحيد قياسى للعمليات التكنولوجية والأجور وبرامج العمل . ووضعوا تزامناً للعمليات التى تجرى على بعد مئات الأميال . وخلقوا التخصصات اللازمة للعمليات والأقسام الجديدة . وقاموا بتركيز رأس المال والطاقة والبشر العاملين . . وحاربوا من أجل أن يصلوا بحجم شبكة العمل إلى الحد الأقصى من الضخامة . . من أجل أن ينجزوا ذلك كله ، خلقوا أشكالاً جديدة من التنظيم مبنية على مركزية المعلومات والقرارات . . » .

كذلك شجعت الموجة الثانية على المركزية فى السياسة . وفى هذا يضرب توفلر المثل بالولايات المتحدة الأمريكية وبالاتحاد السوفياتى ، وبعض من الدول الأخرى . ويقول إن عملية التصنيع فى الولايات المتحدة دفعت النظام السياسى نحو المزيد من المركزية ، فوضعت واشنطن فى يديها عدداً متزايداً من مفاتيح القوة ومن المسئوليات ، واحتكرت واشنطن يوماً بعد يوم سلطة اتخاذ القرار المركزى ، وانتقلت السلطة فعلاً من الكونجرس ومن القضاء إلى أكثر السلطات الثلاث مركزية : الأجهزة التنفيذية .

محطة ضخ الأموال

وموجة مركزية السياسة المتزايدة كانت أقوى فى السويد واليابان وبريطانيا وفرنسا . . إلا أنها بلغت أقوى مدى لها فى البلاد الصناعية الماركسية . . فرغبة السوفيات فى الإسراع بمعدلات التصنيع ، دفعتهم إلى إنشاء أكثر المؤسسات السياسية والاقتصادية تركيزاً، واضعين حتى أصغر قرارات الانتاج فى يد الهيئات المركزية .

وانسحب نفس الشىء على المال والاقتصاد . وفى هذا المجال يعتبر «البنك المركزى» رمزاً للمركزية فى جميع الدول الصناعية ، وتعتمد هذه الحكومات على البنك المركزى فى تنظيم مستوى نشاط السوق ومعدلات هبوطها ، وارتفاع الأسعار ، ونتيجة لهذا حقق البنك الركزى لنفسه درجة عالية من التحكم فى التخطيط القصير المدى فى الاقتصاد الرأسمالى .

فالمال يسرى فى كل شريان من شرايين المجتمعات الصناعية ، الرأسمالية والاشتراكية ، لهذا ظهرت الحاجة إلى محطة ضخ مركزية للمال . وفى هذا سارت البنوك المركزية ، والحكومات المركزية يداً فى يد . وأصبحت المركزية هى أحد المبادئ السائدة فى حضارة الموجة الثانية .

هذه المبادئ الستة التى تسود المجتمعات الصناعية ، الرأسمالية منها والاشتراكية ، كان لابد من ظهورها ، لمواجهة الفجوة التى حدثت بين الانتاج والاستهلاك ، ونتيجة للدور المتعاظم دائماً للسوق . وقد فرضت هذه المبادئ بدورها ظهور البيروقراطية ، والمؤسسات البيروقراطية الكبرى، التى وقف الفرد حيالها تائهاً ، يتلفت حول نفسه .

واليوم ، أصبح كل من هذه المبادئ الستة هـدفاً لهجوم قوى الموجة الثالثة . وفى المقابل استعد سدنة الحضارة الصناعية فى الموجة الثانية لمواجهة هذا الهجوم . . . بالضبط كما واجه سدنة الاقطاع قيام الحضارة الصناعية .

ولكى نفهم من الذى ستوضع فى يده مقاليد الأمور فى المستقبل ، عندما تسود الموجة الثالثة انحاء العالم ، يجب علينا أولاً أن نعرف بالتحديد ، من . الذى بيده مقاليد الأمور اليوم .

الفصل الثالث

من الذي يحكمنا ؟

والآن ، نطرح سؤالاً هاماً : من هم الذين يسيرون الأمور فى مجتمعاتنا الحالية ؟ . من هم أصحاب السلطة الحقيقية المؤثرة فى الحضارة الصناعية للموجة الثانية ؟ . . خلال الموجة الأولى ، كان المزارع يعرف بوضوح من الذى بيده مقاليد الأمور فى مجتمعه المحدود الملك أو الاقطاعى ، أو رجل الدين . لم يكن المزارع فى حاجة إلى خبير فى العلوم السياسية ليدله على صاحب النفوذ الفعلى فى مجتمعه . ومع انتشار الموجة الثانية ، ظهرت أشكال جديدة من السلطة ، أشكال غامضة ومختلطة . وأصبح الفرد ، عندما يتحدث عن السلطة الحقيقية التى ترسم له خطوط حياته وتتحكم فى مقدراته ، يستخدم تعبيرات معماة ، كأن يقول « هم يريدون ذلك . . » . . ولكن ، ما الذى يعنيه الفرد بكلمة « هم » ؟

لقد عمدت الحضارة الصناعية ، كما رأينا . إلى تفتيت المجتمع إلى آلاف الأجزاء المترابطة ، مصانع ، دور عبادة ، مدارس ، اتحادات تجارية ، سجون ، مستشفيات . . إلى آخر ذلك . وفتتت المعرفة إلى نظم تعتمد على الاخصائيين . وفتتت الوظائف إلى شظايا من فرعيات العمل المنفصلة عن بعضها ، وفتتت العائلات إلى وحدات أصغر . هذا اقتضى الأمر أن يتولى

أحد ما مسألة تجميع كل ما قامت الحضارة الصناعية بتفتيته . فى كيان موحد جديد .

هذه الحاجة فتحت الباب أمام أنواع جديدة من الاخصائيين ، الذين ينحصر عملهم فى الربط بين هذه الجزئيات . وإجراء التكامل . والذين يمكن أن نطلق عليهم اصطلاح « التكامليين » . ونحن نجدهم فى الحضارة الصناعية كمنفذين واداريين ومنظمين ورؤساء ومديرين . لقد شاع وجود التكامليين فى كل عمل خاص وحكومى ، وعلى كل المستويات الاجتماعية . . واستطاعوا أن يقنعوا الكل بأنه لا غنى عنهم .

يقول « آلفين توفلر » : فى منتصف القرن التاسع عشر ، فكر ماركس فى أن كل من يملك أدوات الانتاج والتكنولوجيا يستطيع أن يسيطر على مكوناته ، بإمكان العمال أن يعطلوا الانتاج ، ويستولوا على أدوات الانتاج من أصحاب العمل . وبمجرد امتلاكهم لادوات الانتاج . يمكنهم أن يحكموا المجتمع . إلا أن التاريخ قد خدع ماركس . فقد قاد الوضع إلى ظهور فئة جديدة من البشر ، تقود النظام وتتكفل بتحقيق التكامل بين عناصره . وفى آخر الأمر لم يسيطر أصحاب المصانع ، ولا العمال . فى الدول الرأسمالية والاشتراكية على السواء ، ثبت أن من صعد إلى القمة هم اخصائيو التكامل . . أى أن مصدر السلطة ليس امتلاك وسائل الانتاج ، ولكن التحكم فى وسائل التكامل . .

وحتى نفهـم أدق ما يعنيـه توفلر بالتكـامليين . أو الاخصائيين الـذين يتولـون تحقيق التكـامل بين عمليـات الانتاج والاستهـلاك . علينا أن نعـود قليلاً إلى الوراء .

ففى مجال العمل ، كان التكامليـون الاوائل أصحاب المصانع والمقاولين وأصحاب المعامل .

وكان بامكان المالك عادة ، مستعيناً ببعض المساعدين ، أن ينسق عمل عدد كبير من الأيدى العاملة غير الماهرة ، وأن يوفر التكامل بين مشروعاتهم وبين النطاق الاقتصادى الأكبر .

ولما كان المالك هو المسئول عن تحقيق التكامل للعمل فى تلك المرحلة . فليس من المستغرب أن يخلط ماركس بين الاثنين . . ويعطى اهتمامه الأكبر للملكية .

لقد شهـدت المشروعات تكاثراً لا يصـدق لمجموعات الخبراء والمديرين الـذيـن ظهـروا بين صـاحـب العمـل وعمالـه . بعـد أن أصبحـت العمليـة الانتاجية أكثر تركيباً . وبعد أن اصبح تقسيم العمل أكثـر تخصصاً . ومع تضخم المشروعـات الانتاجية ، لم يعـد بامكـان الأفراد بمن فيهـم المالك أو كبار المساهمين ، أن يفهموا العمليات الدائرة بأكملها .

ومع تزايـد قوة المدير ، تناقصـت أهمية حملة الأسهم . وانتقلـت مقاليد السلطة من يد المالك والعامل إلى يد اخصائى التكامل .

يقول توفلر إن لهذا الوضـــع مـا يناظـره فى الدول الاشتراكيـة . ولقد اضطر لينين إلى أن يشجب البيروقـراطية السوفييتية منـذ عام ١٩٢١ . وقال تروتسكـى، من منفـاه عام ١٩٣٠ ، بوجـود خمسة أو ستة ملايين مـدير ، يكونون طبقة « لا تـرتبط مباشرة فى عمل انتاجى ، ولكن تديـر وتأمر وتقود وتعفو وتعاقب » . وقال فى اتهامه « قد تكـون وسائل الانتاج فى يد الدولة ، ولكن الدولة نفسها فى يد البيروقراطية » . كـذلك دعا تيتو فى يوغوسلافيا إلى أن ينتبه الشعب إلى « التكنوقراطية . والبيروقراطية ، عدوتى الطبقة » .

آلـة التكامـل الكـبرى

ثم يتحـدث توفلر بعـد ذلك عما يسميه « آلـة التكامل » ، أو « مـاكينة التكامل » ، فيقول : إن تحقيق التكامل لأحد المشاريع الصناعية ، أو حتى لصناعة بأكملها ، كان جانباً صغيراً مما كان يجب أن يتم . لقد افرز المجتمع الصنـاعى الحديـث مجمـوعـة ضخمة مـن المنظمات ، مـن اتحادات العمال وروابط التجارة ، إلى المؤسسـات الدينية والتعليمية ، ومـن المستشفيات إلى فرق الترفيه والتسلية . . وكل هـذه التنظيمات تحتاج إلى أن تعمل وفق مخطط لـه قـواعد استنبطهـا . وهكـذا ظهـرت الحاجـة إلى القوانين ، التـى تتيـح للمجالات الاعلامية والاجتماعية والتكنولوجية أن تعمل جميعاً مترابطة .

على أساس الحاجـة الملحة لتكامل حضـارة الموجة الثانية ، طلـع علينا أكبر كيان تنظيمى معروف ، وهو ماكينة التكـامل التى يعتمد عليها النظام بأكمله : الحكومة الكبرى .

على نسق هـذه الحكومة الكبرى ، قامت حكومات أخرى على مختلف مستويات المجتمع ، كامتداد لهذه الحكومة الكبرى . وحتى فى بلاد الاقتصاد الحر ، ظهرت الحاجة الشديدة للحكومة الكبرى ، فهى اقدر على الاسراع بتطوير السكك الحديدية ، وبناء الموانئ ، وشق الطرق والقنوات ، وتنظيم خدمات البريد والبرق والتليفون والاذاعة ، ووضع قواعد التعامل التجارى ، والقيام بالتوحيد القياسى للسوق . . إلى آخر ما تقوم بـه حكومات المجتمع الصناعى .

وهكذا ساد المجتمعات الصناعية ، الاشتراكية والرأسمالية ، نفس النسق : شركات كبرى أو منظمات انتاجية كبرى ، وماكينات حكومية هائلة : يقول توفلر : « وبدلاً من أن يمسك العمال بمقاليد وسائل الانتاج كما تنبأ ماركس ، أو أن يستولى الرأسماليون على السلطة كما يميل إلى القول اتباع آدم سمث ، نمت قوة جديدة تماماً ، لتتحداهما معاً ، لقد استولى اخصائيو السلطة على (وسائل التكامل) . وعن طريقها أمسكوا بزمام التحكم اجتماعياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً . . لقد حكم التكامليون مجتمعات الموجة الثانية . . . » .

تحت راية الثورة

وفوق هذه الصفوة من اخصائيى التكامل ظهرت ، فى مجتمعات الموجة الثانية « صفوة عليا » على المستوى الأرفع ، هى المسئولة عن تخصيص الاستثمارات . فسواء فى الصناعة أو المال ، فى البنتاجون أو فى مكاتب التخطيط السوفييتية ، تقوم الصفوة العليا بتخصيص الاستثمارات الكبرى

داخل المجتمع الصناعي ، وتضع الحدود التي يلتزم بها ، ويعمل في حدودها ، أخصائيو التكامل .

وقد حدث مراراً وتكراراً . خلال السنوات المائة الماضية ، في دولة بعد أخرى ، أن هب الثوار والمصلحون يحاولون نسف جدران السلطة القائمة ، لبناء مجتمع جديد على أسس العدالة الاجتماعية والمساواة السياسية . ولبعض الوقت استطاعت هذه الحركات أن تعلق آمال الملايين بأحلام الحرية ، كما استطاع الثوريون ، من وقت لآخر ، أن يتسلموا مقاليد السلطة في بلادهم . . . ومع ذلك ، فقد كانت النتيجة تجيء واحدة في كل حالة . .

ففي كل مرة ، وتحت راية الثورة ، يتشكل نظام جديد من الصفوة والصفوة العليا . . قد تتغير بعض الوجوه ، ولكن البناء الأساسي يعود ليتشكل من جديد .

ذلك لأن حضارة الموجة الثانية تحتاج إلى ذلك البناء التكاملي ، وإلى اخصائيي السلطة الذين يستقرون على قمة ذلك البناء . . واحتياجها إلى ذلك لا يقل عن احتياجها إلى المصانع ، والوقود ، والعائلة النووية . . . فالتصنيع والديمقراطية الكاملة التي يبشر بها البعض ، لا يجتمعان معاً في واقع الأمر .

واليوم ، بينما أخذت الموجة الثالثة للتغيير تدق جدران هذه السلطة الادارية . بدأت في دولة بعد أخرى تظهر الشروخ في نظام السلطة هذا . وأخذت ترتفع الأصوات المطالبة بالمشاركة في الادارة ، وتقاسم اتخاذ القرار مع العمال والمستهلكين ، ومساهمة المواطن في صنع ديمقراطيته المنشودة .

التخطيط الخفى

عندما نتأمل النظم السياسية . لا تتشابه دولتان من الدول الصناعية فى شىء . ومع ذلك إذا نزعنا القشرة الخارجية لهذه الأنظمة المتباينة ، اكتشفنا عدداً من عناصر الشبه القوية وراء هذه الاختلافات . بل سنرى أن كل النظم السياسية لدول الموجة الثانية أقيمت وفقاً لتخطيط خفى واحد . وأنها انشئت وفق مزيج من افتراضات الموجة الأولى القديمة ، وبعض الأفكار التى شاعت فى عصر الصناعة .

كان من الصعب على واضعى النظم السياسية للموجة الثانية أن يتصوروا نظاماً سياسياً على أساس العمل ورأس المال والطاقة والمواد الخام ، وليس على الأرض . لهذا بقيت الأرض وتقسيماتها فى صميم قلب الحياة . ومن ثم لا يجب أن ندهش عندما نجد أن الأساس الجغرافى بقى ماثلاً فى كل نظمنا الانتخابية المختلفة . ممثلو الشعب والنواب فى الدول الصناعية ما زالوا ينتخبون كممثلين لسكان قطعة محددة من الأرض ، وليس كممثلين لطبقة اجتماعية أو لعرق من الأعراق ، أو لتقسيم من التقسيمات الاجتماعية .

ماكينة الانتخابات

لقد انبهر رجال الأعمال والمثقفون والثوريون فى بداية العصر الصناعى انبهاراً كاملاً بالآلة . . وعلى هذا الأساس ، أقاموا العديد من نظم حياتهم على نفس الأسس التى تقوم عليها الآلة ، وتعمل وفقها ، فى هذا يقول توفلر: « المؤسسون الثوريون لمجتمعات الموجة الثانية ، وقد تشبعوا بهذا التفكير

الميكانيكى ، وتشربوا بإيمان أعمى ، وإحساس عميق ، بقوة وكفاءة الآلات ، لم يكن من الغريب أن يبتكروا مؤسسات سياسية تشترك فى ملامح عديدة مع آلات مطلع العصر الصناعى . سواء كانوا رأسماليين أو اشتراكيين . . »

ومن أهم هذه الابتكارات التى يتحدث عنها توفلر ، لعبة التمثيل النيابى الشائعة ، والتى تنحصر مكوناتها فى :

* الأفراد الذين يتسلحون بأصواتهم .
* الأحزاب التى تجمع هذه الأصوات .
* الأفراد والزملاء الذين بمجرد فوزهم بالأصوات يتحولون فوراً إلى «ممثلين» أو «نواب» لأصحاب الأصوات .
* الهيئات البرلمانية التى يقوم فيها النواب بانتاج القوانين على أساس التصويت .
* المنفذون رؤساء ، ورؤساء وزارات ، ووزراء ، الذين يلقمون آلة صنع القوانين هذه بالمادة الخام ، على شكل سياسات ، ومن ثم يفرضون ما يصدر من قوانين .

وللتأكيد على مبدأ استيحاء الآلة ، يعيد توفلر صياغة هذه الآلية ، فيقول إن أصوات الناخبين تمثل الذرات . والأحزاب ، التى تقوم بدور انبوبة التجميع التى تصب فيها الانابيب المختلفة ، تتولى جميع هذه الأصوات الانتخابية . وهذه تقوم بخلط الأصوات ومزجها وفقاً لقوة الحزب النسبية ، ويكون الناتج هو ما نطلق عليه «إرادة الجماهير» وهو الوقود الأساسى الذى يفترض أنه يشغل ماكينة الحكومة .

ويرى توفلر أن النظم السياسية للموجة الثانية ، مهما تحورت ، تستمد عناصرها مما يسميه « صندوق عدة » الانتخابات . ويعتقد أن « صندوق العدة » هذا هو الأساس الذى يستخدم فى صناعة الماكينة السياسية التقليدية فى جميع الدول الصناعية . وكما يرمز المصنع إلى المجال التكنولوجى الصناعى بأكمله ، أصبحت الحكومة القائمة على التمثيل النيابى رمزاً لكل الدول « المتحضرة » .

صندوق العدة

لم تقتصر هذه « الماكينة الديمقراطية ، على المستوى القومى ، بل انتقلت إلى ما تحته من المستويات الاقليمية والمحلية ، حتى وصلت إلى القرى ، واصغر التجمعات السكانية . . ويوجد اليوم ، فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ، حوالى خمسمائة ألف نائب أو مسئول عام منتخب . و٢٥٨٦٩ وحدة حكومية محلية فى المناطق العمرانية . . كل منها له انتخاباته الخاصة . وممثلوه ، وإجراءاته الانتخابية .

واليوم ، على مستوى العالم ، تقعقع وتطقطق مئات الآلاف من آلات التمثيل الانتخابى هذه ، منتجة فيضاً من القوانين واللوائح والقواعد فى دول الموجة الثانية . و « صناديق العدة » فى كل الدول الصناعية ، تكون فيما بينها ، وبشكل متزايد ، آلة واحدة هائلة وخفيفة ، هى مصنع القوانين العالمى . ويبقى علينا أن نعرف بعد ذلك كيف يتم تحريك روافع هذه الالة العالمية وتشغيل مفاتيحها . . ومن هم أولئك الذين يقومون بتشغيله .

وهم المساواة وحكم الأغلبية

الحكومة القائمة على التمثيل والانتخاب، والتى ولدت من الأحلام التحررية لثوار الموجة الثانية . كانت تقدماً مدهشاً بالنسبة لنظم السلطة الأسبق . كانت نصراً تكنولوجياً أكثر إثارة من الآلة البخارية أو الطائرة . لقد أتاحت هذه الحكومة تتابعاً منظماً ، يختلف كثيراً عن حكم السلالة الوراثى ، وفتحت قنوات الاتصال فى المجتمع بين القاعدة والقمة ، ووفرت طقساً يتيح التعامل مع الخلافات بين الجماعات والفئات المختلفة على أساس سلمى .

وبفضل تمسك هذه الحكومة القائمة على التمثيل الانتخابى بمبدأ حكم الأغلبية ، وبحق كل إنسان فى اعطاء صوته ، ساعدت بعض الفقراء والضعفاء فى استدرار بعض المنافع من اخصائى السلطة الذين يديرون آلة التكامل فى المجتمع . ولهذا ظهرت الحكومة بمظهر الثورة الإنسانية فى التاريخ .

ومع ذلك ، ومنذ البداية الأولى ، عجزت هذه الحكومة دائماً عن الوفاء بالتزاماتها . ولم تستطع ، فى أى مكان ، أن تغير البناء التحتى للسلطة فى الدول الصناعية ، بناء الصفوة والصفوة العليا ، وهكذا . تحول الانتخاب ، بصرف النظر عمن يكسب فيه ، إلى أداة ثقافية قوية فى يد الصفوة .

عملية الدفعة الواحدة

ويعقد توفلر تشبيهاً طريفاً بالنسبة للنظام السياسى للموجة الثانية .

يقول « إذا ما نظرنا إلى النظام السياسى للموجة بعين المهندس الميكانيكى . وليس بعين العالم السياسى ، ستصدمنا فجأة ، حقيقة جوهرية تمر علينا عادة دون أن نلحظها » . ويحكى عن هذه الحقيقة فيقول : إن المهندس الصناعى يفرق دائماً بين نوعين أساسيين من الآلات . الآلات التى تعمل بشكل متقطع . والتى تعرف باسم آلات « عملية الدفعة الواحدة » والآلات التى تعمل باستمرار والتى يطلق عليها اسم « آلات الانسياب الدائم » .

مثال النوع الأول ، المكبس أو آلة الكبس التى يقدم إليها العامل صفيحة المعدن لتشكلها وفقاً للمطلوب ، ثم تتوقف حتى يقدم إليها صفيحة جديدة ، ومثال النوع الثانى آلات مصنع تكرير البترول ، التى ما أن تبدأ عملها حتى تواصله بدون توقف .

يقول توفلر إنه إذا نظرنا إلى مصنع القوانين العالمى ، بما فيه من عمليات انتخاب متقطعة ، وجدنا انفسنا وجهاً لوجه مع عملية « دفعة واحدة » تقليدية . فالجمهور يسمح له أن يختار بين المرشحين فى وقت محدد ، وبعده تتوقف « ماكينة الديمقراطية » عن العمل حتى موعد الانتخابات القادمة .

وهو يقارن هذا بتيار التأثير المتواصل ، المنساب من مختلف منظمات أصحاب المصالح وجماعات الضغط . وباعة السلطة . ويقول إن الصفوة

خلقت لنفسها آلة قوية من آلات « الانسياب الدائم » ، تعمل إلى جانب آلة الانتخابات المتقطعة ، وتكون فى كثير من الأحيان متناقضة معها . ولا يمكن أن نفهم كيف تتم ممارسة سلطة الدولة واقعياً فى مصنع القوانين العالمى ، إلا إذا نظرنا إلى هاتين الآلتين جنباً إلى جنب .

وقاد مبدأ الانتخاب والتمثيل السياسى أخيراً ، إلى ابتكار أداة أخرى أكثر فاعلية للتحكم الاجتماعى ذلك لأن مجرد اختيار بعض الأفراد لتمثيل الآخرين ، يضيف أعضاء جدداً لطبقة الصفوة . فالأفراد الذين يتم انتخابهم لا يكتفون بمجرد التمثيل السياسى لمن انتخبوهم بل يدخلون كوسطاء بينهم وبين الصفوة فى مجال العمل والمجال الحكومى ، مما يحولهم إلى اعضاء فى صفوة اخصائيى التكامل . ويجعل منهم ، شاءوا أم أبوا ، اخصائيين فى السلطة .

ولكى نرى الصورة بشكل أوضح علينا أن نرجع قليلاً إلى الوراء لنلخص ما سبق أن قلناه . نقول إننا أمام حضارة تعتمد أساساً على وقود الحفريات ، وعلى انتاج المصانع ، والأسرة النووية ، والشركات الكبرى ، والتعليم الجماعى ، ووسائل الاتصال الجماهيرى . حضارة تقوم على فجوة يتزايد اتساعها بين الانتاج والاستهلاك ، ويديرها نظام من الصفوة مهمته خلق التكامل بين هذه العناصر فى هذا النظام تعتبر الحكومة القائمة على التمثيل النيابى هى المعادل السياسى للمصنع . والحكومة فى ذاتها عبارة عن مصنع كبير لانتاج القرارات الجماعية المتكاملة . . وكما فى معظم المصانع تتم ادارة الحكومة من أعلى . . ومثل معظم المصانع ، تكون عرضة للهجمات المتزايدة للموجة الثالثة .

المدينة الفاضلة الفاشلة

يورد توفلر واقعة عن جزيرة تدعى « آباكو » تعداد سكانها ٦٥٠٠ شخص وتتبع جزر البهاما ، وتقع فى مواجهة شاطئ فلوريدا .

منذ عدة سنوات صممت مجموعة من رجال الأعمال الأمريكيين ، وتجار السلاح ، ودعاة الاقتصاد الحر ، على أن الوقت قد حان لكى تعلن آباكو استقلالها !! . .

وتلخصت خطتهم فى الاستيلاء على الجزيرة والخروج بها من سلطة حكومة البهاما ، عن طريق وعد قطعوه لكل واحد من السكان الأصليين للجزيرة بمنحه أربعة آلاف متر مربع من أرض الجزيرة بعد نجاح الثورة ! . . (وكان هذا يتيح لهؤلاء المغامرين الحصول على باقى أرض الجزيرة ، والبالغ مساحتها أكثر من ألف مليون متر مربع) . كان حلم هؤلاء المغامرين هو إقامة مدينة فاضلة على الجزيرة ، لا تخضع لأى نوع من أنواع الضرائب ، يستطيع أن يلجأ إليها الأغنياء من رجال الأعمال الذين يخافون شبح الاشتراكية .

إلا أن مواطنى آباكو لم يظهروا حماساً للمشروع ، فتوقف العمل فيه .

يقول توفلر : « فى عالم تتصارع فيه الحركات القومية على السلطة ، وتزعم ١٥٢ دولة عضوية ذلك الاتحاد التجارى للأمم ، المعروف باسم الأمم المتحدة ، تخدم هذه الحركة ، التى تتضمن محاكاة مضحكة ، غرضاً مفيداً . إنها تدفعنا إلى تحدى مبدأ القومية لذاته . . هل يمكن أن يصنع ٦٥٠٠ شخص من أبناء آباكو دولة ، سواء كانت ممولة من رجال الأعمال

أملا ؟ . . . وإذا كانت سنغافورة التى تتكون من ٣,٢ مليون مواطن تعتبر دولـة ، فلماذا لاتكـون نيـويـورك بما فيهـا مـن ثمانيـة مـلايين ، دولـة هـى الأخرى؟ . . وإذا حصلت بروكلين على قاذفات قنابل نفاثة ، هل يمكن أن تصبح دولة ؟ . . رغـم أن هذه التساؤلات قد تبدو عبثيـة ، إلا أنها ستأخذ دلالات جـديدة مـع ضربات الموجـة الثـالثة ، الموجهـة إلى صميم أسـاس حضارة الموجة الثانية . . وإلى أن نستطيـع اختراق الغلاف الضبابى المحيط بموضوع القوميـة والوطنية ، لن نتمكن من أن نحقل التنـاقضات الكائنة بين حضارتى الموجتين الأولى والثـانية ، فى الوقت الذى تضربهما فيـه معاً الموجة الثالثة . . !

السـوق القوميـة

قبل أن تبدأ الموجة الثانية زحفها عبر أوروبا ، لم تكن معظم مناطق العالم قد ترابطـت على شكل دول ، ولم تكن الحدود واضحة تمامـاً بين المقاطعات والامارات، ولم تكن قد تحددت معالم سيطرة الدولة ، أو تحدد شكل التحكم السياسى فى نمط قياسى .

ولما كـان مـن المستحيل تحقيـق التكـامـل الاقتصـادى بدون التكـامـل السياسـى ، لذلـك كان مـن الصعب أن يمارس رجـال الأعمال والصناعة نشاطهـم خلال حضـارة الموجة الثـانية دون ظهـور الوحـــدات السياسيـة المناظرة للوحدات الاقتصــادية . وعندما بدأت مجتمعات الموجـة الثانية فى بناء اقتصادها القومى، حدث تحول أساسى فى وعى الجماهير. فقد تضاعف لديهم الاحساس بالمحلية ، وتصاعد التيار القومى .

وهذا هو سبب ما ساد انحاء العالم الصناعى فى القرن التاسع من موجة حماس للقومية . ألمانيا التى كانت تتكون من ٣٥٠ إمارة صغيرة ، شعرت بالحاجة إلى أن تتجمع فى سوق قومية واحدة . . وحدث نفس الأمر فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا . وترنم الشعراء بالوطن ، وعملوا على إذكاء الروح القومية . وراح المؤرخون يبحثون عن الروابط التاريخية ، ويطرحون سير قدامى الأبطال . وعمل المفكرون على جمع شذرات الفنون والآداب التى يمكن أن تنسب للوطن الجديد . . حدث كل هذا بالتحديد ، عندما جعله التصنيع واجباً ضرورياً .

يقول توفلر « بمجرد أن نفهم حاجة الصناعة إلى التكامل ، يتضح لنا على الفور معنى الوضع القومى . فالأمم ليست وحدات روحية كما قال شبنجلر ، ولا هى تجمعات عقلانية أو أرواح اجتماعية ، وليست الأمة ميراثاً غنياً من الذكريات كما وصفها رينان ، أو رؤية مشتركة للمستقبل كما حددها أو رتيجا . . إن ما نسميه دولة حديثة ، هو ظاهرة من ظواهر الموجة الثانية . . ولم يصنع الدولة الحديثة إلا إلتحام النظام السياسى الموحد بالاقتصاد الموحد . . » .

الاستعمار الحقيقى

ومن الواضح أنه لم يحدث أن انتشرت حضارة جديدة بلا صراع . لقد شنت حضارة الموجة الثانية حربها الشاملة على عالم الموجة الأولى ، فانتصرت ، وفرضت أرادتها على الملايين والبلايين من البشر .

وقبل الموجة الثانية بزمن طويل ، ابتداء من القرن السادس عشر ، بدأ

حكام أوروبا فى بناء امبراطورياتهم الاستعمارية الواسعة . . الأسبان والفرنسيون والبريطانيون والهولنديون والبرتغاليون والايطاليون . . لقد انتشروا فى انحاء العالم يستعبدون أو يفنون شعوباً بأكملها ، ويضعون أيديهم على مساحات واسعة من الأرض ، يرسلون منها الهدايا إلى حكامهم .

إلا أن هذا كله يبدو بلا معنى ، إذا ما قيس بما حدث بعد ذلك فالكنوز التى كان هؤلاء المغامرون يرسلونها إلى بلادهم كانت غنائم فردية ، يعتمد عليها فى تمويل الحروب والثروات الخاصة ، وبناء القصور الشتسوية والصيفية ، وإقامة المهرجانات الصاخبة . . كانت أسلوب حياة البلاط الغارقة فى الفراغ ، والمفتقرة إلى العمل . . إلا أن هذا لا يشبه فى شىء اقتصاد الدول الاستعمارية المكتفى ذاتياً .

كان استعمار الموجة الأولى تافهاً ، لكن الموجة الثانية حولت ذلك الاستعمار التافه إلى استعمار قوى ضخم ، لم يعد الاستعمار نشاطاً هامشياً ، بل أصبح عنصراً متكاملاً فى البناء الاقتصادى للدول الصناعية تعتمد عليه حياة الملايين من عمالها .

وراء كل النشاط الاستعمارى ، مهما تعددت مصادره ومبرراته ، تكمن حقيقة واضحة ، وهى أن حضارة الموجة الثانية لا يمكن أن تعيش فى عزلة . إنها تحتاج بشكل ملح إلى الموارد الرخيصة من الخارج . كما تحتاج إلى سوق عالمية متكاملة تستطيع من خلالها أن تصدر إنتاجها .

وعالم الموجة الثانية بمعاملته باقى العالم كمضخة بترول وغاز ، أو مزرعة ، أو منجم ، أو مرعى ، أو مصدر للعمالة الرخيصة ، أحدث تغييرات عميقة

في الحياة الاجتماعية لسكان الدول غير الصناعية . الحضارات التي عاشت في أمان لآلاف السنين ، مكتفية ذاتياً ، تنتج ما تحتاج إليه من الطعام ، وجدت نفسها تنجرف مرغمة الى نظام التجارة العالمي . . وكان عليها إما أن تتاجر أو تفنى .

الاستقطاب المعاصر

ولم يكن خبراء التكامل في كل مكان على نفس القدر من القوة والكفاءة ، فدخلت دول الموجة الثانية ، فيما بينها ، في حروب دامية للسيطرة على النظام الاقتصادي العالمي الذي كان آخذاً في التشكل . وكان من نتيجة هذه الحروب أن انخفض معدل النمو في التجارة العالمية . وفي نهاية الحرب العالمية الثانية ، أصبحت دول أوروبا الغربية ترقد وسط الدخان والحطام ، وتحولت ألمانيا إلى أرض خراب ، وقاسى الاتحاد السوفييتي من خسائر فادحة ، معنوية ومادية ، أما اليابان فقد تمزقت صناعتها . . من بين كل هذه القوى الصناعية العظمى ، كانت الولايات المتحدة الأمريكية هي الوحيدة التي خرجت باقتصاد سليم .

هذا بالاضافة إلى أن حالة الضعف التي خرجت بها القوى الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية ، شجعت المستعمرات ، واحدة بعد الأخرى ، على المطالبة باستقلالها ، وحتى قبل أن تتوقف آخر طلقات مدافع الحرب ، كان من الواضح أن الاقتصاد الصناعي للعالم كله يحتاج إلى اعادة تشكيل ، على أسس جديدة بعد الحرب .

وهكذا ، تكفلت دولتان باعادة تنظيم وتحقيق تكامل نظم الموجة

الثانية : الولايات المتحدة الأمريكية ، والاتحاد السوفييتى .

استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية ، عن طريق صندوق النقد الدولى ، والبنك الدولى ، والاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة ، أن تقيم بناء تكاملياً واحداً للتجارة العالمية . وقد تمكنت من التحكم فى هذا النظام منذ عام ١٩٤٤ ، وحتى سبعينيات هذا القرن ، لقد استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تحقق التكامل الشامل بين اخصائيى التكامل فى الدول الاخرى .

السوفييت . . ودوامة النظام النقدى

إلا أن قيادة الولايات المتحدة الأمريكية لعالم الموجة الثانية ، واجهت تحدياً متزايداً بقيام الاتحاد السوفييتى ، الذى ظهر بصورة المعادى للاستعمار، وصديق الدول التى تعانى منه .

لقد نظر لينين إلى الاستعمار باعتباره ظاهرة رأسمالية خالصة . وقال إن الدول الاشتراكية وحدها هى القادرة على تحرير شعوب المستعمرات مما يقع عليها من ضغط ، ومما تعانيه من بؤس . لأن الاشتراكية لا تدخل فى تركيبها الحاجة إلى الاستغلال الاقتصادى .

لكن توفلر يرى رأياً آخراً ، وهو يقول « ما فات على لينين ، هو أن العديد من القواعد المعمول بها فى الدول الصناعية الرأسمالية ، تعمل أيضاً فى الدول الصناعية الاشتراكية . فقد أصبحت هذه الأخيرة جزءاً من النظام النقدى العالمى ، واقامت هى أيضاً اقتصادياتها على الفصل بين الانتاج

والاستهلاك ، ومن ثم احتاجت هـي الأخرى إلى السوق (وإن لم تكن سوقاً موجهة نحو الربح بالضرورة) . واحتاجت إلى الربط بين المنتج والمستهلك ، كما احتـاجـت هـي الأخـرى إلى المواد الخام من خـارجهـا لتغـذى بها آلتهـا الصناعيـة . لهذه الأسباب مجتمعـة احتاجـت هذه الـدول أيضاً إلى النظـام الاقتصادى العـالمى المتكامل ، حيث تحصل على ضروريـاتها من الخارج ، وتبيع انتاجها للخارج . . !! » .

ويدخـول الاتحاد السوفييتى كجزء مـن النظام النقدى العـالمى ، أصبح عليه أن يقبل الطرق « المرعية » فى انجاز الأعمال ، وأصبح مقيداً بالتعريفات المعمول بها للكفـاءة والقدرة الانتاجية . . نفـس التعريفات التى قـد يكون ادانها من قبـل باعتبارهـا من أصول الرأسماليـة . وهكذا تضطر الدول التى تدخل النظـام النقـدى العـالمى أن تقبل بطـريقـة لا شعـورية ، المضـامين والتصنيفات والتعـريفات والطرق المحاسبيـة ووحدات القياس الاقتصـادية المعمول بها فى ذلك النظام .

كما أنشأت الدول الرأسمالية صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، تحرك السوفييت لتحقيق حلم لينين فى نظام اقتصادى عالمى متكامل واحد بانشاء مجلس المعونات الاقتصادية المتبادلة ، والمعروف باسم « كوميكون » ، والذى يلزم الدول الداخلـة فيه بالتعامل فيما بينها ، ويعطـى الاتحاد السوفييتى حق اعتماد خطط التنمية لهذه الدول .

* * *

والآن ، يبدو لنا التصميم المعروض واضحاً . لقد قسمت حضارة الموجة

الثانيـة العالم ونظمتـه فى شكل دول محددة . ونظـراً لحاجتها إلى مـواد باقـى انحاء العـالم ، جذبـت مجتمعات الموجة الأولى ، ومـا بقى مـن المجتمعات البدائية ، إلى نظامها النقدى ، وخلقت سوقاً عالمية متكاملة .

إلا أن الحركة الصناعية المتفشية كانت أكثر من نظام اقتصادى أو سياسى أو اجتماعى . . كـانت أيضـاً طريقة وأسلـوباً فى التفكير ، ولهذا افـرزت ما يمكن أن نطلق عليه « عقلية الموجة الثانية » .

هذه العقلية . تقف اليوم كعقبة أسـاسية فى سبيل تحقيق حضارة الموجة الثالثة بشكل فعال .

الفصل الرابع

الرؤية الصناعية ..
أيديولوجية عظمى للمعسكرين

عندما مـدت حضارة الموجة الثانيـة أذرعها الأخطبوطية ، لتلتـف حول العالم ، مغيرة كـل ما تصل إليه ، حملـت معها ما هـو أكثر من التكنولـوجيا والتجارة . والموجة الثانية ، عند اصطدامها بحضارة الموجة الأولى ، لم تخلق فقط واقعاً جديداً للملايين من سكان الأرض ، لكنها خلقت طريقة جديدة للتفكير في الواقع ، ونظرة خاصة للحياة .

لقد جلب ذلك الاصطدام بقيم ومضامين وأساطير وأخلاقيات المجتمع الزراعى تعريفات جديدة ، للعقيدة ، والعدالة ، والحب والسلطة والجمال . وجاءت الموجة الثـانية بكل جديـد من الأفكار والمواقف ووحـدات القياس وأزاحت المفـاهيم القديمة حـول الزمان والمكان والفضـاء والمادة والسببيّة ، وحلت محلها مفاهيم جديدة . . باختصار، خلقت ما يمكن أن نطلق عليها اسم « الرؤية الصناعية » . هذه الرؤية الصناعية هى التى صيغ على أساسها المنهج الدراسى لتلاميذ الحضارة الصناعية ، والتى فرض عليهم أن يفهموا العالم من خلالها .

فى البداية ، لم يكن هناك ما يوحى عند النظرة الأولى بوجود تيار أساسى سائد . وبدا الأمـر كما لو انه ليس أكثر من صراع بين تيارين ايـديولوجيين

قويين . وعند منتصف القرن التاسع عشر ، كان لكل دولة صناعية جناحان واضحان بشدة ، جناح يسارى وجناح يمينى . . دعاة الاشتراكية ودعاة الفردية والاقتصاد الحر .

وقد اقتصرت معركة الايديولوجيات فى بداية الأمر على الدول الصناعية وحدها لكنها سرعان ما انتشرت بعد ذلك فى أنحاء الكرة الأرضية . ومع قيام الثورة السوفييتية عام ١٩١٧ ، وتبلور التنظيم المركزى لأجهزة الدعاية الموجهة بالكلمة ، تفاقم صراع الايديولوجيات واحتدم . وعندما كادت الحرب العالمية الثانية تنتهى ، تصدى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية ، كل بشروطه ، لمحاولة تحقيق التكامل للسوق العالمية ، أو لمعظمها . وانفق الجانبان ميزانيات هائلة لنشر سياساتها بين أبناء الدول غير الصناعية .

فى أحد الجانبين كانت النظم الاشتراكية ، وفى الجانب الآخر كان هناك ما يطلق عليه النظم الديمقراطية الحرة . فنصبت المدافع ، ورصت القنابل ، استعداداً للتدخل كلما استحال استمرار الحوار المنطقى . لكن الذى لم يلحظه إلا القلة ، وسط آتون حرب الدعاية هذه ، أنه بينما كان كل جانب يدعو إلى ايديولوجية مختلفة ، كان الجانبان معاً يناديان ويحضان أساساً على « أيديولوجية عظمى » واحدة . وإذا كانت استخلاصات كل جانب ، وبرامجه الاقتصادية ومبادئه السياسية مختلفة جذرياً ، الا أن العديد من الافتراضات التى بدأ بها كانت واحدة ، بالضبط كما حدث فى الصراع المحتدم بين البروتستانت والكاثوليك ، فى الوقت الذى يبشر فيه كل منهما بالسيد المسيح .

العقائد الثلاث

الماركسيون وأعداء الماركسية الرأسماليـون ، والأمريكيون والروس ، كلهم تقدموا إلى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، حيث المناطق غير الصناعية من العالم ، يحملون جميعاً نفس المجموعة من الفروض الأساسية ، يبشرون جميعاً بتفوق الحضارة الصنـاعيـة على كـل الحضارات ، ويلعبـون دور الحواريين المتحمسين للرؤية الصناعية .

وكانـت نظراتهم للعـالم ، التى عمـدوا إلى اشاعتهـا ، مبنية على ثـلاث عقائد متبادلة التـأثير ، نابعة من الرؤية الصناعية . . . ثـلاثة أفكار ربطت بين جميع دول الموجة الثانية ، وفرقت بينها وبين باقى دول العالم .

أول هـذه الأفكـار لـه صلـة بالطبيعيـة فبينما يختلـف الاشتراكيـون مـع الرأسماليين ، بعنف فى أغلب الأحيان ، حول طرق الاستفادة من ثمار الطبيعة ، فإن كلا منهما نظر إلى الطبيعة بنفس الطـريقة . . لقد آمن كل منهما بحقيقة أن الطبيعة شيء موجود فى انتظار من يستغله .

ورغم أن الحضارات الأسبق لم تكن رفيقة بالطبيعة ، ورغم ما كان يحدث من استغلال للأرض المزروعـة باجتثاثها أو حرقها ، ورغـم ما كان يجرى من قطع لأشجار الغـابات ، إلا أن قدرة تلك الحضارات على التخريـب كانت محدودة . لم يكن هناك مـايدفع أبناء تلـك الحضارات إلى وضع ايديـولوجية خاصة تبرر التخريب الذى يحدثونه .

ولكن مـا أن حلت حضـارة الموجة الثـانية ، حتـى اندفـع الرأسماليـون

الصناعيون إلى ابتزاز الموارد الطبيعية على أوسع نطاق . . نفثوا السموم القاتلة فى الغلاف الجوى للأرض ، وقطعوا أشجار غابات واسعة ، يحيلون مناطق بأكملها إلى أرض جرداء من أجل الربح ، دون التفكير فى عواقب هذا على المدى الأبعد . وكانت فكرة ان الطبيعة ما وجدت إلا لكى يستغلها البشر ، هى التبرير العقلى لكل ما أظهروه من قصر نظر وأنانية .

لا ينسحب هذا على الرأسماليين وحدهم فإن رجال الصناعة الماركسيين، رغم اقتناعهم أن الربح هو أساس كل الشرور فى المجتمع ، تصرفوا بنفس الطريق . لقد كان الصراع مع الطبيعة فى صميم سياستهم .

وهكذا ، نجد على جانبى الانقسام الأيديولوجى فى العالم ، نفس الصورة : البشرية فى مواجهة الطبيعة . . البشر يسعون إلى السيطرة على الطبيعة واستغلالها حتى النهاية . . هذه الحقيقة تعتبر من مفاتيح مكونات الرؤية الصناعية ، أو الايديولوجية العليا التى يستمد منها الماركسيون وأعداء الماركسية افتراضاتهم .

سيادة الإنسان

الفكرة الأساسية الثانية من أفكار هذه الايديولوجية العليا تمضى بناء خطوة أخرى فى هذا الصدد ، فهى لا تكتفى باعتبار الإنسان مسئولا عن الطبيعة ، ولكنها تضعه أيضاً على قمة عملية التطور الطويلة ، التى مرت بها الكائنات على سطح الأرض .

ورغم أنه كانت هناك عدة نظريات قديمة فى التطور ، إلا أن دارون

الـذى ظهر فى منتصف القرن التـاسع عشر ، والذى نشـأ فى أكثر الـدول الصناعية تطـوراً حينذاك ، هو الذى قدم الأساس العلمى لسيادة الإنسان على باقى الكائنات . لقد تكلم عن مبدأ « الانتخاب الطبيعى » الذى تطبقه الطبيعة بطريقـة عمياء . تكلم عن عملية حتمية تجتث بلا رحمة الأشكال الضعيفة وقليلة الكفـاءة من الحياة . قال داروين إن الكائنـات التى اجتازت مثل هذه الامتحانات ، وفقاً لهذا التعريف ، هى أنسب الكائنات .

ورغم أن داروين فى نظريته هذه كان يتكلم عن التطور البيولوجى ، إلا أن أفكاره كانـت منطلقاً لتطبيقات اجتماعية وسياسيـة ، أسرع آخرون إلى القيام بها . فتكلم الاجتماعيون الداروينيون عن مبـدأ انتخاب طبيعى يفعل فعله فى المجتمـع أيضاً ، وأن أكثر الناس غنى وقوة ، بفضـل هذا التفكير ، هـم أنسب الناس وأكثرهم استحقاقاً .

وفقاً لهذا المبدأ ، اعتبرت الحياة الصناعية أعلى مرتبة فى التطور ، بالنسبة للمجتمعات غير الصناعيـة التى تحيط بها . وباختصـار ، اعتبرت حضارة الموجة الثانية أسمى الحضارات المعروفة .

لم تكتـف الفلسفة الـداروينية الاجتماعيـة بتبريـر وجود الـرأسمالية ، بـل فلسفت قيام مبدأ الاستعمار . . فقد كان النظام الصناعى الأخذ فى التوسع ، محتاجاً إلى الشرايين التى تغذيه بالموارد الرخيصة . وكانت هذه الفلسفة تقدم تبريراً أخلاقياً لاستنزاف هذه الموارد ، بأقل الأسعار من المجتمعات الأخرى ، حتى لو كان ثمـن ذلك القضاء على المجتمعات الزراعية ، ومـا أطلقوا عليه المجتمعات البدائية .

شعار التقدم

وكان مبدأ « التقدم » هو المبدأ الجوهرى الثالث للرؤية الصناعية ، والذى كان يربط بين مبدأى الطبيعة والتطور ، ويعتمد على فكرة تقول إن التاريخ يندفع ، بلا رجعة ، نحو حياة أفضل للبشر .

وإذا كانت لفكرة « التقدم إلى الأفضل » هذه ارهاصاتها السابقة على عصر التصنيع ، إلا انها لم تصبح شعاراً شائعاً إلا مع تقدم وزحف الموجة الثانية .

ما أن سادت الموجة الثانية أنحاء أوروبا ، حتى ارتفعت آلاف العقائر بالأغانى التى تمجد « التقدم » ، ابتداء من ليبنتز وتارجوت وليسنج وجون ستيوارت ميل ، إلى هيجل وماركوس وداروين . . كلها أغان تنبض بالتفاؤل العالمى . واقتصر النقاش حول ما إذا كان « التقدم » حتمية نافذة ، أم انه يحتاج إلى أن تمتد له يد المساعدة من الجنس البشرى . . أما « التقدم » فقد كان الجميع يتفقون عليه . لقد هلل للعقيدة الجديدة ، وبشر بها كل الناس ، المؤمنون والملحدون ، الطلبة والأساتذة ، السياسيون والعلماء . وقام الرأسماليون وقوميسييرات الاشتراكية معاً ، بالتهليل لكل مصنع جديد ، وكل انتاج جديد ، وكل مجمع سكنى جديد ، وكل طريق أو سد جديد . . هللوا لذلك باعتباره مثلاً على التقدم الذى لا يقاوم من السيئ الى الجيد الى الأجود . وهكذا شاع شعار « التقدم » لكى يعطى تبريراً لكل ما يصيب الطبيعة من اضرار ، ولكل غزو استعمارى للحضارات « الاقل تقدماً » .

يقول الفين توفلر « على مدى حضارة الموجة الثانية ، كانت ذخيرة دعاة الصناعة فى شرحها وتبريرها ، هى هذه المضامين الثلاثة الرئيسية : الحرب ضد الطبيعة . وأهمية التطور ، ومبدأ التقدم . . . وبهذا ، يمكننا القول بأن حضارة الموجة الثانية ، من خلال نضوجها ، خلقت صورة جديدة تماماً للواقع مبنية على افتراضاتها الخاصة المتميزة حول الزمان والمكان والسببية . . . جامعة شذرات من الماضي ، ترصها إلى جوار بعضها بطرق جديدة ، معتمدة فى ذلك على التجريب . إنها بذلك قد غيرت ، بعنف وقسوة الطريقة التى اعتاد الناس أن يتقبلوا بها العالم من حولهم ، والتى اعتادوا أن يتصرفوا بها فى حياتهم اليومية . » .

الزمان . . كخط مستقيم

لقد رأينا فيما سبق كيف اعتمد انتشار الصناعة على التوقيت الدقيق للسلوك البشرى وفقاً لايقاع الآلة ، بحيث أصبح التزامن أحد المبادئ الرئيسية لحضارة الموجة الثانية . وكيف ظهر أفراد المجتمع الصناعى لأبناء المجتمعات الأخرى كمجموعة من البشر الذين قد استعبدهم الزمن ، لايفتئون يتطلعون إلى ساعتهم طوال اليوم .

فأبناء الريف لا يحتاجون من الزمن إلا ما يكفى لمعرفة موعد الزرع والحصاد ، لهذا لم يشعروا بالحاجة إلى استنباط وحدات زمنية صغيرة كالساعات والدقائق والثواني . المزارع يحدثك عن الذهاب إلى الحقل فى الضحى ، أو اللقاء فى العصر ، لكن المجتمعات الصناعية شعرت بحاجتها

إلى تحديد الوقت بدقة شديدة ، مما قاد إلى ابتداع وحدات قياسية جديدة ، تفتت الثانية إلى أجزاء أدق ، يمكن تطبيقها وتعميمها فى كل مكان .

إلا أن الحضارة الصناعية لم تقف عند حد تقطيع الوقت إلى وحدات صغيرة جداً ، بل عمدت إلى وضع هذه الأجزاء الدقيقة من الوقت على خط مستقيم يمتد خلفاً إلى الماضى وأماماً إلى المستقبل . . لقد ابتدعت الحضارة الصناعية ما يسمه ألفين توفلر « الزمان الخطى » ويقول إنه من فرط تشبع أبناء الحضارة الصناعية بهذا التصور ، يصعب عليهم مناقشته أو تخيل تصور آخر للزمن .

علماً بأن العديد من المجتمعات السابقة للمجتمع الصناعى ، وبعض مجتمعات الموجة الأولى التى ما زالت قائمة حتى الآن تنظر إلى الزمن باعتبار أنه يمضى فى دائرة وليس على امتداد خط مستقيم . الزمن عند أبناء المايا والبوذية والهندوسية دائرى متكرر والتاريخ عندهم يعيد نفسه بطريقة لانهائية . ويظهر هذا فى عقيدتهم حول التناسخ ، وحلول الأرواح فى أجساد جديدة ، بحيث تتكرر دورة الحياة بشكل متواصل .

الذى يهمنا تسجيله فى هذا الصدد أن الزمن الخطى هو أحد مكونات الرؤية الصناعية للتطور والتقدم . فالزمن الخطى هو الذى يجعل فكرة التقدم ومبدأ التطور مقبولين ومطلوبين ومقنعين ، لأنه إذا كان الزمن دائرياً وليس خطياً ، وإذا كانت الأحداث ترتد على أعقابها بدلاً من أن تتحرك فى اتجاه وحيد ، فإن ذلك سيعنى أن التاريخ يكرر نفسه ، وأن ما يجرى من تطور وتقدم ليس أكثر من وهم . . مجرد ظلال على حائط الزمان .

وكما أثرت الحضارة الصناعية على رؤيتنا للزمن ، كان عليها أن تعيد تركيب المكان ليناسب الرؤية الصناعية الحديثة .

التزامن المكانى

قبل ظهور حضارة الموجة الأولى ، عندما كان أجدادنا القدامى يعتمدون على الصيد والرعى وصيد الأسماك ، كانوا يبقون فى حالة تحرك دائم . القبيلة التى كانت تتكون من خمسين رجلاً وامرأة وطفلاً ، كانت تحتاج إلى السعى فى أرض تمتد مئات الكيلومترات فى كل عام ، لكى تحصل على طعامها فى ظروف مواتية .

وعلى العكس من ذلك خلقت حضارة الموجة الأولى أجيالاً ضنينة فى استخدامها واستغلالها للأرض . فنجد الانسان وقد أقلع عن الحياة البدوية بما فيها من ارتحال دائم ، اتجه إلى زرع الحقول ، والاستقرار الدائم فى مكان واحد . وعندما بدأت ارهاصات الحضارة الصناعية ، كانت الحقول الواسعة تحيط بمجموعات متجاورة متزاحمة من أكواخ الفلاحين . وفيما عدا قلة من التجار والدارسين والجنود ، كان معظم الأفراد يعيشون حياتهم كلها فى نطاق محدود للغاية . وفى هذا يقول المؤرخ ج . هيل إن متوسط أطول رحلة كان يقوم بها معظم أبناء المجتمع الزراعى على مدى أعمارهم لايزيد على ٢٥ كيلو متراً .

وما أن سادت العاصفة الصناعية انحاء أوروبا فى القرن الثامن عشر ، حتى أعادت ثانية حياة الامتداد المكانى الواسع ، الذى بلغ مداه حالياً

بحيث شمـل الفضاء الخارجي . فخـلال الحضارة الصناعية ، كان يجرى نقل البضـائع والبشر والأفكار عبر عشرات الآلاف مـن الكيلومترات ، كما اعتاد الأفراد قطع المسافات الطويلة جداً ، بحثاً عن العمل . أما الانتاج ، فبعـد أن كان منتشـراً على نطاق واسـع فى الحقول ، أصبـح الآن مركـزاً فى المدن .

واقتضى الأمـر ترابطـاً مركباً بين المدينة والـريف . سيـل متدفـق من الطعام والطاقة والمواد الخام والبشر يندفع مـن الريف إلى المراكز الحضارية . وفى نفـس الوقـت ، يتـدفق مـن هـذه المراكز سيـل مـن البضائع المصنعـة والمعدات والأفكار والقـرارات المالية فى اتجاه الريف . وقد حرصت الحضارة الصناعية على أن تحقـق تكاملاً وترابطاً دقيقـاً بين هذين التياريـن فى الزمان والمكان .

وفى اطار المدن ذاتها ، احتاج الأمـر إلى العديد من الأشكـال المكانية ، وأصبح مطلوبـاً من المهندسين المعماريين أن ينشئوا المكاتـب والبنوك وأقسام الشرطة والمصـانع ومحطـات السكك الحديديـة والمتاجـر والسجون ومـراكز الاطفاء والمستشفيات والمسارح . هذه الانماط العديدة فى شكلها ، كان من الضرورى أن يتم تـرتيبها فيما بينهـا بطريقـة وظيفية . كـان لا بد مـن تحقيق التوافق المكانـى ، والتكامل ، فى مواقع المصانـع ، والطرق التى بين البيوت والمتاجر ، ومـواقع المستشفيات ، والمدارس ، ومحطات الطـاقة ، وشبكـات أنابيب المياه ، وخطوط التليفون . .

هـذا التـوافق المكانى الملحـوظ بين الفراغات المتخصصة ، والـذى كان

ضرورياً لضمان توجه الفرد المناسب إلى المكان المناسب فى الوقت المناسب ، هذا التوافق هو المناظر المكانى للتزامن الزمانى . . وهو ما يمكن أن نطلق عليه التزامن المكانى .

عصر الخرائط التفصيلية

لقد جلبت تغيرات الموجة الثانية معها أيضاً تضاعفات وتحديدات مرسومة بدقة للحدود المكانية . فحتى القرن الثامن عشر كانت حدود الامبراطوريات فى أغلب الأحيان ، غير واضحة . ولأن الكثير من المساحات الواسعة لم تكن مسكونة بالبشر ، كان التحديد الدقيق غير مطلوب . ومع تزايد السكان ، واتساع التجارة ، وتكاثر المصانع فى أنحاء أوروبا ، بدأ العديد من الحكومات فى رسم خرائط دقيقة لحدودها . ومن ثم تحددت المناطق الجمركية بوضوح أكبر . كذلك تم رسم حدود الممتلكات العامة والخاصة بعناية . وظهرت الأسوار وعلامات التقسيم والحدود وخرائط تسجيل الأرض .

وكما قادت ضرورة القيام بالأعمال فى وقت معين إلى خلق المزيد من تحديدات ومقاييس الزمن ، تزايدت يومابعد يوم الحدود التى تضبط المكان . وباختصار ، وجدت حركة النزوع إلى الزمان الخطى ، ما يقابلها بالنسبة للمكان .

وفى جميع المجتمعات الصناعية ، اشتراكية ورأسمالية ، شرقية وغربية ، صار التخصص فى المكان المعمارى ، ورسم الخرائط التفصيلية ، واستخدام

الـزى الموحد ، والاتفـاق على وحدات القيـاس الدقيقـة ، وقبل هـذا وذاك فلسفـة الخط زمانياً ، ومكانياً ، صـارت جميعها ثـابتـاً أساسيـاً فى الرؤيـة الصناعية .

ماهى خامة الكون ؟

لم تقتصر حضارة الموجة الثـانية على بناء صورة جديدة للـزمن والمكان ، واستخـدام هذه الصـورة فى تشكيـل الحياة اليـومية ، بـل بشرت بـإجاباتها الخاصة عن السؤال الأبـدى الذى راود دائماً فكر البشر : ما هى الخامة التى تتكون منها الأشياء التى يضـمها الكون ؟ . كـانت كل ثقافة تخترع أساطيرها وتشبيهاتها الخاصة فى محاولـة للاجابة عن هذا السـؤال . بعض المجتمعات تصورت الموجودات جميعـاً كأجزاء من كـل واحد ، والبعض الآخر لم يـأخذ بهذه الكلية الشاملة بل نظر إلى الكون باعتباره كيانات جزئية مستقلة .

وقبل قيام الصناعة بـألفى سنة ، طرح ديموقريطس فكرتـه الغريبة التى تقول إن الكـون لا يتكون من كيـانات كليـة غير متميزة ، ولكنه يتكـون من جسيمات دقيقة متميـزة ، لا يمكن تحطيمها أو تبسيطها ، وهـى لا ترى أو تتجزأ . . وقد أطلق اسم « الذرات » على هذه الجسيمات .

إلا أن النظريـة لم تصبح فكرة مسيطرة إلا فى فجـر الموجة الثانيـة ، التى اعتمدت فى تقدمها على النظرية الذرية من الناحية الطبيعية والفلسفية .

وكل حضارة جديدة تلتقط أفكاراً من الماضى ، وتعيد صياغتها بطريقة تساعـدها على فهـم نفسها ، فى علاقتهـا بالعـالم . وفى المجتمع الصنـاعى

الناشىء الـذى كان قد بدأ يتحرك نحو الانتاج على نطاق واسع لمصنعات تنتجها الآلة بشكـل نمطى وتتكون من أجزاء يجرى تجميعهـا ، فى مثل ذلك المجتمع لم يكن مـن الممكن التخلى عن فكرة الكون الذى يشكـل من تجميع أجزاء . تلك الأجزاء التى تتشكل بدورها من مكونات أصغر متميزة .

الانسان . . والذرة

وكانـت هناك أيضاً أسبـاب سياسيـة واجتماعية لقبول النمـوذج الذرى للواقع ، فمع اصطـدام الموجة الثانية بمؤسسات الموجـة الأولى ، احتاجت الموجة الثانية إلى تمزيق البشر إلى أفراد بعيداً عن نموذج الأسرة الكبيرة ، وعن نفوذ الدين . . احتـاجت إلى اعتبار الانسان مناظراً للطبيعـة ، حراً طليقاً ، قائماً بـذاته خالياً مـن أية ارتباطـات حتمية . . باختصار ، اعتبـار الانسان الجسم الأصغـر الذى لا ينقسـم ولا يتجزأ ، والـذى يتكون منـه المجتمع . ولعـل انعكاس هـذا يبدو واضحاً فى اعتبـار الصـوت الانتخـابى الجسيـم الأصغر فى الكيـان السياسى . . بنفس الطريقة شـاعت الفكرة الـذرية ، وصبغت رؤية الانسان لكافة مجالات الحياة . . .

السببية . . وقوانين نيوتن

وكما تسعى أية حضـارة إلى تبنى رؤية خاصة بها عن الخامـة التى تتكون منها الأشياء ، تسعى أيضاً للوصول إلى تفسير حول سبب حدوث الأشياء .

وقد وجدت حضـارة الموجة الثانية ضالتها فيما يتصل بغوامض السببية ، فى اكتشاف نيـوتن لقـانون الجاذبية . وقـد أعطى نيـوتن مثلـه الشهير الذى

يوضح العلاقة بين المؤثر والمتأثر ، معتمداً فى تشبيهه على نموذج كرات البلياردو التى تصطدم الواحدة منها بالأخرى ، وتتحرك كل واحدة منها استجابة للأخرى . هذا المثل الذى يوحى بقوى خارجية تحرك الأشياء يمكن قياسها والتعرف عليها . كان له تأثير غاية فى القوة . لأنه ينسجم تماماً مع التصور الصناعى الجديد ، فيما يتصل بالزمان الخطى والمكان الخطى .

سجن جديد للعقل البشري

فجأة ، تحول الكون الذى كان يبدو للبشر معقداً ، مترامياً لا يمكن التنبؤ بأحواله ، غامضاً لا يمكن سبر أغواره . . هذا الكون تحول إلى شيء مرتب منظم منضبط وأصبحت الجسيمات الدقيقة ، أو الذرات ، هى المناظر لكرات البلياردو . وصار تفسير كل ما حدث فى الكون كامناً فى العلاقات المتبادلة بين هذه الذرات . ولم يقتصر الأمر على المادة بل انسحب التفسير على البشر ، وعلى أنماط سلوكهم الشخصى والاجتماعى والسياسى .

وهكذا بدا الأمر كما لو ان نيوتن قد اكتشف القوانين التى تنظم الكون ، فى الوقت الذى حدد فيه داروين القوانين التى تنظم التطور البيولوجى والاجتماعي ، واكتشف فيه فرويد القوانين التى تنظم النفس البشرية وتحكمها .

لقد أصبح تحت يد حضارة الموجة الثانية نظرية للسببية ، تبدو معجزة فى قوتها وشمولها . هذه النظرية الجديدة للسببية ، مع الصورة الجديدة للزمان والمكان ، حررت معظم الجنس البشرى من مظالم الرؤية المختلطة

التي كان يعاني منها . وفتحت الباب أمام الفتوح والانجازات التكنولوجية وحررت العقل من السجن الذي عاش فيه لآلاف السنين .

لكن الرؤية الصناعية خلقت هي الأخرى سجناً جديداً للعقل البشري ، وهو العقلية الصناعية ، التي تحط من قدر كل ما لا يتفق معها ، وتتجاهله ، وتعاقب كل من يشطح خياله خارج أسوارها ، والتي تحول البشر إلى وحدات بروتوبلازمية في تبسيط مخل ، والتي تبحث دائماً عن الحلول الهندسية الميكانيكية لمشاكلها .

إن أيديولوجية الحضارة الصناعية ليست محايدة ، كما تحب أن تبدو . فهي مصدر التبرير الذاتي ، الذي تستمد منه كل ايديولوجيات الأجنحة اليسارية والأجنحة اليمينية لعصر الصناعة . وبمثل ما تفعل كل الثقافات ، ابتكرت حضارة الموجة الثانية عدسات ذات تشويهات خاصة يرى من خلالها الناس أنفسهم والكون من حولهم ، وحققت بذلك كونها أكثر النظم الثقافية قوة في تاريخ البشرية .

والرؤية الصناعية ، باعتبارها الوجه الثقافي لعصر الصناعة ، جاءت مناسبة للمجتمع الذي عملت على تأسيسه ، فساعدت على خلق مجتمع المنظمات الضخمة ، والمدن الضخمة ، والبيروقراطيات المركزية ، ونظام السوق الذي يدخل في كل شيء . . وذلك في المجتمعات الرأسمالية كما في المجتمعات الاشتراكية .

لا يوجد سبب واحد

ويبقى بعد ذلك أمر غامض وحيد : ما السبب الذى قاد إلى قيام الثورة الصناعية ؟ ما الذى جعل الموجة الثانية تمضى فى اندفاعها لتشمل العالم بأكمله ؟ . .

أى بحث عن « سبب » قاد إلى قيام الثورة الصناعية محكوم عليه بالفشل . ذلك لأنه لا يوجد سبب واحد يمكن أن يعزى إليه قيامها .

التكنولوجيا وحدها ليست القوة الدافعة للتاريخ . وليست الأفكار والقيم هى المحرك الوحيد ، ولا الصراع الطبقى . كما أن التاريخ ليس مجرد تسجيل لتغير وتحول العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها ، أو الأوضاع السكانية ، أو الاختراعات فى مجال الاتصال . والاقتصاد ، لوحده ، لايمكن أن يفسر هذه الظاهرة أو غير ذلك من الأحداث التاريخية . ليس هناك متغير مستقل متميز وحيد يمكن أن تتوقف عليه المتغيرات الأخرى لكن يوجد متغيرات تتبادل التأثير ، لا حد لتعقيداتها وتركيبها .

كل ما نملكه فى هذا الصدد هو أن نركز على التغييرات التى تبدو أكثر اتفاقاً مع أغراض بحثنا ، مع حرصنا على تبين الخطأ الضمنى الناشئ عن اختيارنا . بهذا المنطق ، يمكن القول بأن المتغير الذى كانت له أكبر الآثار فى تشكيل حضارة الموجة الثانية ، هو تلك الهوة المتسعة التى نشأت بين الانتاج والاستهلاك ، وما تبع ذلك من نمو خرافى لشبكة المبادلة التى نسميها السوق ، سواء كان ذلك السوق فى شكله الرأسمالى أم الاشتراكى .

هذا الأخدود بين الانتاج والاستهلاك ، هو الذى تمخض عن النظام النقدى الحديث كله ، بما فى ذلك مؤسسات البنوك المركزية ، وأسواق الأوراق المالية والتجارة العالمية والمخططون البيروقراطيون ، وروح التقييم الكمى والحسابى ، وأخلاقيات التعاقد ، والانحرافات المادية ، والمقاييس الضيقة للنجاح ، والجهاز المحاسبى القوى .

ومن هذا الأخدود بين الانتاج والاستهلاك ، نشأ الضغط المؤدى إلى تعميم التوحيد القياسى والتخصص والتزامن والمركزية . . ومنه تولدت الفروق بين الجنسين فى الدور والمزاج .

لعبة الصناعة قد انتهت !

وأيا كانت مزايا ونواقص حضارة الموجة الثانية ، فمن الحيوى أن نفهم أن لعبة الصناعة قد انتهت ، وإن طاقاتها قد تبددت ، وأن قواها تتلاشى فى كل مكان ، فى الوقت الذى جمعت فيه الموجة التالية قواها .

وهناك تغييران أساسيان يجعلان الاستمرار « العادى » للحضارة الصناعية غير ممكن بعد الآن ، أولهما أننا وصلنا إلى نقطة تحول فى « حربنا مع الطبيعة » ، والغلاف الجوى للكرة الأرضية لن يتحمل المزيد من الافساد الذى تجلبه الصناعة . وثانيهما ، اننا لن نستطيع بعد الآن الاعتماد على مصادر الطاقة غير المتجددة ، والتى مازالت العماد الأساسى للتطور الصناعي .

ولا يعنى هذا نهاية المجتمع التكنولوجى ، أو نهاية الطاقة ، لكنه يعنى أن كل التطورات التكنولوجية المستقبلة ستتشكل وفقاً لمدى حفاظها على

البيئة . ويعنى أيضاً أنه لكى تصل إلى مصادر بديلة ، ستعانى أيضاً الدول الصناعية من أعراض الانكماش المتتابعة ، وربما . فى الوقت الذى يعجل فيه هذا النضال من أجل البحث عن أشكال جديدة بديلة للطاقة ، فى حدوث التحولات الاجتماعية والسياسية .

وفى نفس الوقت ستعانى حضارة الموجة الثانية من نقص المواد الخام الرخيصة . فمع انحسار نفوذ الاستعمار والامبريالية الجديدة ، سيكون على الدول المتطورة تكنولوجياً إما أن تتجه إلى داخلها بحثاً عن بدائل وموارد جديدة ، تشترى من بعضها البعض ، وتقلل بهذا من روابطها الاقتصادية مع الدول غير الصناعية ، أو أن تستمر فى الشراء من الدول غير الصناعية ، ولكن وفق شروط تجارية جديدة تماماً ، وفى كلتا الحالتين سترتفع التكاليف بشكل ملموس .

ومن الداخل

هذا الضغط الخارجى على المجتمع الصناعى ، تصاحبه ضغوط عظمة من داخل النظام نفسه . . نرى هذا بشكل مأساوى فى الصراع الدائر لتحديد دور كل من الجنسين فى الحياة ، وفى الحركات النسائية ، فى الحركات الداعية لتقنين الشذوذ الجنسى . فى شيوع مودات الأزياء الواحدة للجنسين . وفى مجال العمل ، نرى الممرضين والمرضى على السواء يعيدون تقييم علاقاتهم بالأطباء ، ورجال الشرطة والمدرسين يحطمون القواعد المرعية والتقاليد الراسخة ، فيقومون باضرابات غير قانونية .

ومؤسسات الموجة الثانية تعانى الأزمات واحدة بعد الأخرى . أزمات فى نظام التأمين الاجتماعى وفى نظم البريد والدراسة . أزمات فى نظم الخدمة الصحية ، وفى أساليب الحياة الحضرية . أزمات فى النظم النقدية الدولية . . بل إن كيان الدول والمؤسسات الدولية يعانى ذاته من أزمة حادة .

من حق الإنسان أن يتمسك بالنظر إلى كل أزمة من هذه الأزمات على حدة ، وأن يرفض محاولة تبين العلاقات الوثيقة بينها ، لكن ذلك سيكون على حسابه هو ، عندما تتضاعف المحنة التى يعيشها . . إن الذى يحدث أكبر من كل هذه الأزمات . . وإذا فكرنا فيما يحدث من خلال تصور الموجات الحضارية التى تتعاقب على البشر ، ومن خلال التصادم الذى يحدث بينها ، أمكننا أن نصل إلى الحقيقة الكبرى لجيلنا . . . وهى أن الحضارة الصناعية تحتضر ، . . وأننا نشهد بشائر الموجة الثالثة من موجات التغيير .

إذا ما تفحصنا الوضع من حولنا ، عبر الظواهر المتشابكة لضروب الفشل والتصادم ، أمكننا أن نتبين خيوط فجر جديد من النمو ، ومن الاحتمالات المستقبلية المتفائلة .

الفصل الخامس

عصر التفكير..
فيما لا يمكن التفكير فيه

والآن ، بعد أن استعرضنا ذلك التحليل الخلاق ، الذى قام به ألفين توفلر للحضارة الصناعية ، أو حضارة الموجة الثانية ، تبدأ المهمة الصعبة لرسم معالم حضارة المستقبل ، أو بمعنى أدق التى بدأت خطاها الأولى عام ١٩٥٥ ، وظهرت ارهاصاتها فى كل مكان من حولنا ، وتخضع لها حياة البشر فى المستقبل القريب .

المهمة صعبة لأننا ، رغم كل جهد بالتزام الموضوعية ، مازلنا متأثرين بمنطق وفكر الحضارة الصناعية المتحضرة ، مما يعرضنا إلى الانزلاق فى مسالك التفكير القديم . . وهى صعبة أيضاً ، لأن واقعنا ملىء بالمتناقضات المتشابكة ، نتيجة للاصطدام الحتمى بين الموجة الثالثة ، والموجة الثانية ، مما يجعل عملية جمع هذا الشتات المتناقض ، ورسم صورة المستقبل من خلال هذا الشتات ، عملية غاية فى المشقة . وفى هذا يقول توفلر « من السهل القول بأن المستقبل ينطلق من الحاضر . . لكن أى حاضر ؟ . . وحاضرنا يتفجر بالمتناقضات ! ! » ، إلى أن يقول « . . وبرغم كل ما يخرج من أحشاء الكمبيوتر . . وبرغم الاحصاءات والخرائط ، وبرغم المعادلات الرياضة التى يعتمد عليها علماء المستقبل فى أبحاثهم . . برغم هذا كله تبقى محاولاتنا فى استراق النظر إلى المستقبل — وربما حتى فى محاولاتنا لفهم اليوم - تبقى ، كما يجب أن تبقى ، عملاً فنياً أكثر منه علمياً . . » .

ويرجع توفلر صعوبة التنبؤ بالمستقبل إلى ما عودتنا عليه حضارة الموجة الثانية . فهى قد أعطت أهمية كبرى لتنمية قدراتنا على تفتيت المشاكل والنظر فى مكوناتها ، لكنها لم تساعدنا كثيراً فى تنمية قدرتنا على جميع هذه المكونات ثانية فى كل منسجم . وهذا هو السبب فى أن صورة المستقبل تراها أعيننا متشرذمة مختلطة العناصر ، وربما خاطئة ، علينا أن نواجه هذا النقص بكل اصرار ، لأننا نقف اليوم على عتبة عصر التركيب والتوليف ، عصر تشكيل المكونات الجزئية فى كل متكامل سليم .

طاقة جديدة لكل مكان

يبدأ توفلر رسم صورة تفصيلية للمستقبل بالحديث عن الطاقة . .

يتفق المراقبون جميعاً على أن الاعتماد على وقود الحفريات ، من بترول وغاز ، لا يمكن أن يمضى بنفس معدله إلى الأبد ، أياً كان حجم آبار البترول الجديدة التى نكتشفها . لقد انتهى عصر البترول . وكذلك انتهى عصر الفحم لتناقص امداداته ، ولأضراره على البيئة .

أما التكنولوجيا النووية فتثير مشاكل أكثر حدة ، حتى وهى فى مرحلة تطورها الحالية . فهى تعتمد على اليورانيوم الذى يتعرض رصيده هو الآخر للتناقص ، بالاضافة إلى المخاطر التى تتضمنها عملية استخلاص الطاقة عن هذا الطريق ، بما فى ذلك مشكلة النفايات النووية التى لم نجد لها حلاً

حتى الآن . زد على ذلك ارتفاع تكلفة الطاقة فى هذه الحالة نسبياً .

يقول توفلر « لقد وصلنا إلى نهاية خط من خطوط التطور ، وعلينا أن نبدأ خطاً جديداً . فأسس الطاقة الخاصة بالموجة الثانية لم تعد مناسبة لنا . . ونحن الآن لا نحتاج فقط إلى تدبير قدر معين من الطاقة ، لكننا نحتاج إلى أن نصل إلى الطاقة بطرق مختلفة ، فى الأماكن المختلفة ، وفى أوقات مختلفة من اليوم ، ومن السنة . . نحتاج إليها لأغراض جديدة علينا ، لم نكن نحلم بها . . » .

الذى لا شك فيه هو أن انتقالنا من الاعتماد على نمط من الطاقة إلى نمط آخر لن يكون عملية سهلة ناعمة . . بل سيكون أشبه بالمخاض الصعب ، الذى تتخلله الهزات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ومع ذلك فلدينا الجانب الأكثر اشراقاً فى هذا المجال . . فعلى مدى التاريخ ، لم يحدث أن انكب ذلك العدد من العلماء ، بكل هذا الحماس والحزم ، للبحث عن أشكال جديدة للطاقة ، لم يحدث أن كانت فى انتظارنا مثل هذه الاحتمالات الجديدة المثيرة فى مجال الطاقة .

هذه الاحتمالات تتراوح بين الطاقة الشمسية ، حيث تتولى الخلايا الكهروضوئية تحويل أشعة الشمس إلى كهرباء . الأمر الذى تدور تجاربه وأبحاث تطبيقه فى أمريكا ، وبين المحاولات السوفييتية الراهنة التى تتضمن اطلاق بالونات تحمل طواحين هواء إلى طبقات الجو العليا ، ترسل تياراً من الكهرباء عن طريق الكابلات . وهناك المحاولات التى تجرى فى مدينة نيويورك للحصول على الكهرباء من حرق النفايات ، وفى ايطاليا وإيسلندا

ونيوزيلندا لتحويل الحرارة الجوفية للأرض إلى كهرباء ، وما تقوم به اليابان من توليد الكهرباء من حركة الأمواج التي لا تتوقف في البحار والمحيطات .

والواقع أنه من الصعب حصر المحاولات العديدة التي تجرى في أنحاء مختلفة من العالم للوصول إلى مصادر جديدة ومتنوعة للطاقة ، ونحن مازلنا في مرحلة ما قبل الاقلاع بالنسبة لهذه المحاولات ، وبمجرد أن نتمكن من تجميع هذه التكنولوجيا الجديدة ستظهر لنا الاحتمالات الكبيرة والخصبة ، وسنتمكن من إرساء الطاقة الجديدة التي ستعتمد عليها الموجة الثالثة .

عوامل انهزام الحضارة الصناعية

فما هو الذي تتميز به طاقة الموجة الثالثة عن طاقة الموجة الثانية ؟ . .

أولاً : ستتميز بأنها تعتمد على امدادات متجددة ، في مقابل المصادر غير المتجددة لطاقة الموجة الثانية .

ثانياً : لن تركز تركيزاً بالغاً على وقود معين ، بل ستعتمد على تنوع عريض من المصادر المتفرقة .

ثالثاً : سيختار كل نشاط نوع الطاقة الأنسب له ، والأقرب إلى تلبية حاجته ، والأسهل بالنسبة له ، وهذا يعني الاقتصاد الملموس في استهلاك الطاقة .

فرض الأسس الجديدة للطاقة لن يتم إلا بالدخول في معركة حامية مع

أصحاب المصالح فى الموجة الثانية . سنجد خلال هذه المعركة فى أحد الجانبين أولئك الذين يستثمرون أموالهم فى المصادر التقليدية للموجة الثانية ، وفى الجانب الآخر نجد انصار الموجة الثالثة الذين يتكونون من المستهلكين ، وحماة البيئة ، والعلماء والذين بدأوا يستثمرون أموالهم فى صناعات الموجة الثالثة ، بالاضافة إلى الجماهير الواسعة التى يتزايد وعيها بضرورة المضى فى طريق التقدم .

فى هذه المعركة يجب ألا نخلط بين دعاة الموجة الثالثة ، وبقايا دعاة الموجة الأولى ، من أنصار العودة إلى الطبيعة ، وإلى ما قبل المجتمع الصناعى ، وإلى التنازل عما وصلنا إليه من انجازات تكنولوجية ، إلى آخر هذه الدعاوى الرومانتيكية . لا يجب أن نخلط بينهما لمجرد انهما يعارضان معاً جبهة الموجة الثانية .

ومع ذلك فعوامل انهزام انصار حضارة الموجة الثانية تبدو واضحة . وهذه العوامل كامنة فى طبيعة هذه الحضارة ، وتأتى من داخلها . . وهذه العوامل يتزايد أثرها يوماً بعد يوم بفعل الأمر الواقع . يؤكد هذا ما سيتم من تغيير عميق فى حياتنا بفقد تكنولوجيا الموجة الثانية جدواها .

صناعات جديدة تماماً

الفحم والسكك الحديدية والنسيج والصلب والسيارات والمطاط وانتاج الأدوات الميكانيكية ، تلك كانت الصناعات التقليدية للموجة الثانية . وقامت كلها أساساً على مبادئ كهروميكانيكية بسيطة من الناحية

التكنولوجية . . كلها تستهلك قدراً كبيراً من الطاقة ، وتلفظ قدراً هائلاً من النفايات وملوثات البيئة ، كلها تعتمد على خطوط الانتاج المتواصلة التشغيل ، وعلى انخفاض المهارات المطلوبة ، والعمل المتكرر ، والبضائع النمطية القياسية ، والادوات الشديدة المركزية .

ابتداء من منتصف الخمسينات ، ووفقاً للاحصائيات ، أخذت هذه الصناعات تتناقص داخل الدول الصناعية ، باعتبارها صناعات متخلفة . وبدأت عملية نقل هذه الصناعات إلى الدول النامية ، حيث الأيدى العاملة الرخيصة ، وحيث التكنولوجيا الأقل تقدماً . وصاحب هذا ظهور صناعات جديدة فى الدول الصناعية المتقدمة ، تحل محل تلك الصناعات المتخلفة .

هذه الصناعات الجديدة تختلف بشكل ملحوظ عن سابقتها فى عدة أوجه : فهى ليست صناعات كهروميكانيكية ، ولا تقوم على العلوم التقليدية لعصر الموجة الثانية ، بل تعتمد على التقدم المتصاعد لخليط من العلوم التى كانت محدودة الرواج ، أو غير معروفة ، منذ ثلاثين عاماً فقط . مثل علم الالكترونات الكمية ، ونظرية المعلومات ، وعلم الأحياء الجزيئى وعلوم المحيطات وعلوم البيئة والفضاء .

وبفضل هذه العلوم الجديدة ، نشأت صناعات جديدة مثل صناعة الكمبيوتر ، وطيران الفضاء ، والبتروكيميائيات المتطورة ، وأشباه الموصلات ، وصناعة وسائل الاتصال المتطورة . . إلى آخر هذه الصناعات التى نسمع اليوم عنها . والتى تحظى بنصيب الأسد فى ميزانيات التصنيع بالدول

الصناعية المتقـدمة . ومع تزايد الاهتمام بهذه الصناعات الجديدة يغلب أن تصبح عماد النشاط الصناعى فى عصر الموجة الثالثة ، جـالبة معها تغيرات كبرى فى القوى الاقتصادية ، والأنماط الاجتماعية والسياسية . وليست هناك حاجة للتدليـل على النمو الهائل المتزايد لصناعة الالكترونيـات والكمبيوتر خلال السنـوات الأخـيرة . الأمـر الذى دعا مجلة عالم الكمبيوتر إلى أن تقول « إذا مـا كانـت صناعـة السيارات قد جـرى عليهـا ما جـرى على صناعـة الكمبيوتر فى الثلاثين سنة الماضية ، لأصبح ثمن سيارة رولزرويس لا يتجاوز دولارين ونصفاً ، ولكانت تقطع مليونين من الأميال عندما تستهلك جالوناً من الوقود » .

إلا أن هـذا الانفجار الالكترونـى هـو مجرد خطـوة واحدة فى اتجاه خلـق المجال التكنولوجى الجديد .

صناعات فى الفضاء

فنفس هـذا التطور والتراكم المتسـارع فى المعلومات تـراه فى مجالى الفضاء الخارجى وأعماق المحيطات ، حيث يظهر بوضوح حجم الانجازات المتجاوزة لتكنولوجيا الموجة الثانية .

لقد أصبحت صناعات الفضاء موضوعاً ساخناً بين العلماء والمهندسين ، ومخططى التكنولوجيات المتقدمة . فى نفس الوقت الـذى يبحث فيه صناع الزجاج عـن طرق لصناعة خامـات جديدة تساعد فى نقـل أشعة الليزر عبر الالياف البصريـة ، ويتم إنتاجهـا فى الفضاء ، نرى محاولات لانتـاج أشباه

موصلات ذات بلورة وحيدة فى الفضاء ، تجعل أشباه الموصلات المصنوعة على الأرض تبدو متخلفة بدائية ، كما أن بعض العقاقير التى تستخدم فى حالات الجلطة الدموية يمكن انتاجها فى الفضاء بخمس نفقات انتاجها على الأرض.

والأهم من هذا وذاك ، المنتجات الجديدة التى لا يمكن انتاجها فوق الأرض بأى ثمن ، فهناك حوالى ٤٠٠ نوع من السبائك الهامة ، لا يمكن أن تنتج إلا فى الفضاء بعيداً عن تأثير جذب الأرض . وتقوم شركة جنرال الكتريك حالياً بتصميم فرن فضائى لهذا الغرض . فى هذا المجال تقول مجلة النشاط المالى الأسبوعية « مثل هذه المشروعات ليست من قبيل الخيال العلمى،فهناك عدد متزايد من الشركات التى تسعى مستميتة لتحقيقها . . » .

ثروات المحيط

نفس هذه الاحتمالات الغنية الكبيرة نجدها فى مياه المحيطات ، حيث تكمن أصول صناعات عديدة تشكل جانباً هاماً من المجال التكنولوجى الجديد لحضارة الموجة الثالثة . ففى المحيط يرقد العديد من الحلول لمشاكل الطعام فى عالم يتضاعف تعداده من البشر . فبدلاً من الأساليب الحالية التى تستهلك الثروة الحيوانية فى البحار والمحيطات بطريقة تهدد بانقراض العديد من فصائل الكائنات المائية ، تسعى الموجة الثالثة لانشاء المزارع السمكية فى أعماق البحار ، بالاضافة إلى استغلال النباتات والحشائش المائية فى التغلب على أزمة الطعام ، دون الحاجة إلى المزيد من الاضرار التى تلحق بالغلاف الجوى للأرض .

وفى المحيطات تكمن الثروات المعدنية ، التى يمكن أن تسد حاجتنا من النحاس والزنك والرصاص والفضة والذهب والبلاتين ، والأهم من كل هذا خام الفوسفات الذى يمكن أن نستخدمه كمخصب للزراعات الأرضية . كذلك يعمل علماء الصيدلة للحصول على عقاقير جديدة من أعماق المحيط ، مثل العناصر المضادة للفطريات ، والعقاقير التى توقف الألم وتمنع النزيف .

شفـرة الحيـاة

والمجموعة الرابعة من صناعات المستقبل بعد الالكترونيات والفضاء والمحيطات هى الصناعات البيولوجية ، حيث تتضاعف المعارف حول حاملات الخصائص الوراثية كل عامين ، ومن ثم تتطور بسرعة مذهلة معلوماتنا عن آليات الجينات . فى هذا يقول العالم والمعلق العلمى المعروف لورد ريتشى كالدر: « . . وبالضبط كما أمكننا التعامل مع اللدائن والمعادن ، أصبحنا الآن قادرين على تصنيع المادة الحية . . !! » .

وفى كتابى « هذا الغد العجيب » تحدثت بالتفصيل عن أبعاد احتمالات المستقبل فى هذا المجال ، وعن الامكانيات الواسعة أمام العلماء ، بعد أن أوشكوا أن يفضوا أسرار الخلية الحية وآليات الوراثة . . امكانيات لا تقتصر على مواجهة العجز والمرض عند الكائنات الحية ، بل تتجاوز ذلك إلى حلول محتملة فى مجال حل مشاكل الطاقة والطعام والزراعة ، مما دفع أحد علماء أمريكا إلى أن يقول « ستحل البيولوجيا محل الكيمياء فى حياتنا . . » .

خلاصة القول ، إننا لم نعد مسجونين داخل جدران التكنولوجيا الكهروميكانيكية للموجة الثانية ، والتى تبلغ العمر من ٣٠٠ سنة ، وإننا بدأنا نرى طلائع المجال التكنولوجى لحضارة الموجة الثالثة . غير أن هذا المجال التكنولوجى لا يقتصر أثره على التكنولوجيا فقط . بل سيحدث ثورة فى المجال الاعلامى الحالى .

الجاسوس . . بطل العصر !

يلفت توفلر النظر إلى ظاهرة طريفة عندما يتساءل : لماذا احتل الجاسوس مكان الصدارة فى الأعمال الدرامية الحديثة على حساب الأبطال القراصنة . وأبطال الغرب الأمريكى . ونجوم التهريب ، وعتاة رجال الشرطة ؟ . . وهو يجيب بنفسه عن هذا التساؤل قائلاً : لأن شخصية الجاسوس شخصية نابعة من مواصفات العصر ، تعتمد فى نشاطها على التكنولوجيا الالكترونية المتقدمة . والأهم من هذا هو أن السلعة التى يتداولها الجواسيس ، تعتبر من أهم معالم الثورة الحالية الكاسحة فى مجال الاعلام ، يعنى بذلك المعلومات .

وهو يعقد مقارنة بين المجال الاعلامى لحضارة الموجة الأولى الزراعية ، والحضارة الصناعية للموجة الثانية . طفل الموجة الأولى كانت تنحصر مصادر معلوماته فى المعلم ، ورجل الدين ، والعمدة ، وأفراد أسرته . والقلة القليلة من أبناء الموجة الأولى هى التى كان يتاح لها أن ترى مدينة غريبة غير المدينة التى نشأوا وعاشوا بها . ومن هنا كانت النماذج المطروحة أمام

الناشئ ، والتى يحتمل أن يقتدى بها أو يقلد ها ، محدودة للغاية .

أما حضارة الموجة الثانية فقد ضاعفت أكثر من مرة قنوات اتصالها . ولم يعد الطفل يستمد معلوماته من أقاربه ومن الطبيعة ، بل وجد من حوله الصحافة والراديو ، وبعد ذلك السينما والتليفزيون ، تمطره فى كل لحظة بسيل من المعلومات . وقد حرصت حضارة الموجة الثانية على أن تستغل هذه القنوات المؤثرة فى زرع توجيهاتها الملحة ، راسمة صورتها المعتمدة للواقع ، التى يجب أن تنطبع على كل العقول .

فعرف أبناء حضارة الموجة الثانية صورة لينين بفكه البارز ومن خلفه يرفرف العلم الأحمر الكبير ، وصورة تشرشل وهو يرفع يده بعلامة النصر ، وصورة هتلر وهو يخطب متشنجاً فى جماهير الشعب الألمانى المهووسة به ، وصورة شارلى شابلن بقبعته وعصاه ، وصورة مارلين مونرو وقد أطار الهواء طرف ثوبها كاشفاً عن ساقيها . . لقد تم استخدام وسائل الاعلام الجماهيرى كوسيلة لاجراء توحيد قياسى لعقول أبناء الموجة الثانية . وكان ذلك بالطبع لحساب خدمة أهداف المجتمع الصناعى .

إلا أن التطور التكنولوجى فى مجال الالكترونيات جعل الإنسان المعاصر غارقاً فى بحر متلاطم ، غير موجه ، من المعلومات التى لا تنقطع . ومن هنا أصبحت رؤيته متجددة ، تتغير عناصرها بتسارع مطرد . ولم تكتف الموجة الثالثة بخلق هذا التسارع فى تغيير وتبديل الرؤية ، بل بدلت البناء المستقر للعملية الاعلامية ، والذى يستمد منه الإنسان حركته اليومية .

تفتيت الجماهير

لقد احدثت الموجة الثالثة انقلاباً فى طبيعة وأسس المجال الاعلامى ، وسارت به فى اتجاه معاكس لاتجاهه السابق . فى مكان تعميق التأثير الإعلامى على الجماهير، وتوسيع قاعدة الجماهير التى تتأثر كلها بنفس الرؤية النمطية ، عمدت الموجة الثالثة إلى تفتيت هذه الجماهير وشرذمتها ، متيحة بذلك فرصة تعدد الرؤية وتنوعها .

ويعتمد توفلر على قائمة احصاء طويلة تفيد أن الصحف والمجلات واسعة الانتشار ، والتى تعتبر نماذجاً لجماهيرية أعلام الموجة الثانية ، قد بدأت تفقد القراء ، بل إن بعضها اضطر إلى التوقف . وليس السبب الأساسى فى ذلك هو انتشار التليفزيون كما يقول البعض ، فهو يعود مرة ثانية إلى الاحصائيات والأرقام ، ليؤكد أن ما خسرته الصحف والمجلات الكبرى ، ذات الاهتمام العام والتأثير الجماهيرى العريض ، كسبته الصحف والمجلات النوعية المتخصصة ذات التوزيع المحدود ، والتى تعبر عن المجموعات الفئوية ، أو أصحاب الحرف الخاصة ، أو الهوايات المحدودة ، أو الجماعات الاقليمية .

وتنسحب نفس هذه الظاهرة على الإذاعة ، بدأت المحطات الرئيسية تفقد جمهورها ، لتستولى عليه الاذاعات المتخصصة والفئوية ، مثل اذاعة تعليم الحرفيين ، أو اذاعة أغانى الروك أو الموسيقى الريفية . . وغير ذلك من الاذاعات الصغيرة العديدة التى تخاطب كل منها قطاعات محددة من جماهير الشباب . كما أن ظهور الكاسيت الصوتى ، وجهاز التسجيل الخفيف

والرخيص، قد حرم محطات الاذاعة الجماهيرية جانباً كبيراً من التأثير النمطى الذى كانت تمارسه على الجماهير الواسعة .

أزمة التليفزيون

ونتقل بعد ذلك إلى التليفزيون ، أكثر وسائل الاعلام الجماهيرى قوة وتأثيراً لقد ظل يؤثر على جيل كامل ، فارضاً الرؤية الخاصة المحددة التى سبق رسمها لتتفق مع مصالح المجتمع الصناعى .

لكن ما أن حل عام ١٩٧٧ ، حتى بدأ ظهور معالم الأزمة التليفزيونية وقد كتبت مجلة تايم تقول « انكب جميع العاملين، المذيعين والمديرين، يتطلعون بعصبية إلى الأرقام . . أنهم لا يصدقون ما يرونه أمامهم . . فلأول مرة فى التاريخ تنخفض مشاهدة التليفزيون بدلاً من أن تزيد !! » .

وهذا يعنى أن الارسال التليفزيونى ، كوسيلة فى يد الصفوة العليا لفرض رؤيتها الوحيدة على الجمهور ، قد بدأ يفقد صلاحيته القديمة ، ويساعد على هذا ، الانتشار السريع لتليفزيون الكابل فى المناطق التى بدأ التنفيذ فيها ، ويتوقع له العلماء شيوعاً ساحقاً بعد التحكم فى تكنولوجيا نقل الصوت والصورة بواسطة أشعة الليزر ، التى تنتقل عن طريق الألياف الزجاجية الدقيقة للغاية ، والتى ستحل محل الاسلاك النحاسية الحالية . فكابل الألياف الزجاجية قادر على نقل عشرات البرامج فى نفس الوقت . والأهم من ذلك أنه يتيح للمشاهد أن يتصل بمحطة التليفزيون ، وأن يتم الاتصال فى اتجاهين . . وهكذا يتحول الجمهور القديم الموحد المتأثر برؤية

مفروضة واحدة ، إلى جماهير صغيرة متعددة نشيطة ايجابية تتبنى العديد من الرؤى .

ومما يساعد على إضعاف أثر التليفزيون كأداة فى يد الصفوة العليا ظهور ألعاب الفيديو وأنواع الخدمات التليفزيونية الاعلامية ، مثل خدمة «تليتيكس » فى بريطانيا ، وظهور الفيديو الكاسيت ، وانتشاره الساحق المتزايد بين الناس .

ويرى توفلر فى هذا التحول خيراً عظيماً على البشرية فكلما تأثرنا برؤية نمطية واحدة للواقع ، مفروضة علينا من أعلى ، قلت حاجتنا إلى التعرف على بعضنا البعض ، واكتشافنا لغيرنا . . فنحن جميعاً نسخ متطابقة من أصل واحد ، أو هكذا يشعر الناس ولو بطريقة لاشعورية . لذلك فإن شرذمة التأثر الجماهيرى وتفتيته ، وتعدد الرؤى للواقع ، ستقود إلى شعور الفرد بالحاجة إلى التعرف على الآخرين ، وإلى المزيد من الاهتمام والاحتكاك حتى يمكن التنبؤ بسلوك الآخرين .

النبع

هذا التحول فى المجال الإعلامى الذى تحققه الموجة الثالثة ، لا يقتصر أثره على بعث الحياة فى البيئة التى نعيش فيها ، بل سيضفى عليها الذكاء أيضاً . والأداة الثورية الكبرى فى هذا المجال هى الكمبيوتر ، ذلك الخليط بين الذاكرة الالكترونية ، والبرامج التى تضع للجهاز الأسس التى يعالج بمقتضاها المعلومات .

وقد بدأ الزحف المتسارع للكمبيوتر على حياتنا ، ما بين عام ١٩٥٥ و١٩٦٥ ، في الفترة التي شهدت بداية زحف الموجة الثالثة على عدد من البلاد الصناعية المتقدمة ، وكان تأثير ذلك الجهاز على درجة من الشيوع والعمق ، مما جعله عنصراً من أساطيرنا الاجتماعية ، يعتمد عليه كتاب السيناريوهات ، وقصص الخيال العلمي كرمز للمستقبل .

إلا أن ما حققه الكمبيوتر من قفزات خرافية خلال السبعينيات تجاوز كل خيال أو حلم . تضاعفت قدراته وسرعة قيامه بالعمليات عدة مرات متتالية ، وانخفض سعره انخفاضاً كبيراً . وظهرت أشكال غاية فى التنوع من الكومبيوتر الشخصى أو المنزلى ، صغيرة الحجم ، قليلة السعر ، واسعة الاستخدام .

ويعطي توفلر للكومبيوتر الشخصي اهتماماً خاصاً ، ويعتبره جهازاً حاذقاً . يمكن استخدامه فى كل شىء ابتداء من حساب الضرائب على أفراد الأسرة إلى تحديد استهلاك الطاقة فى البيت ، إلى استخدامه كلعبة من العاب الفيديو ، إلى حفظ ملفات الأسرة وضبط وثائقها ، إلى تذكير أفراد الأسرة بمواعيدهم الهامة ، مع امكانية استخدامه كآلة كاتبة . ويقول ان هذا كله يعتبر لمحة صغيرة مما يمكن للكمبيوتر الشخصى أن يقدمه .

فقد قامت إحدى الشركات الأمريكية بتنظيم خدمة خاصة لأصحاب الكمبيوتر الشخصى اطلقت عليها اسم « النبع » وفيها تقوم الشركة بتوصيل الكمبيوتر الشخصى بعدة مصادر هامة ، تتيح لصاحبه أن يستدعى إلى شاشته نشرات الاخبار ، وتطورات سوق الأوراق المالية والبرامج التعليمية

وتعليم اللغات ، وكافة المعلومات التى يحتاج إليها عند قيامه بأية سياحة داخلية أو خارجية . وفى نفس الوقت تتيح هذه الخدمة لصاحب الكمبيوتر أن يتصل بأى شخص آخر مشترك فى هذه الخدمة ، باستخدام شاشة الكمبيوتر ، فيكون بإمكانهم تبادل المعلومات ، أو لعب مباراة شطرنج أو طاولة بالاضافة إلى العديد من الخدمات الأخرى التى تستجد يوما بعد يوم .

مضاعفة الذكاء البشري

هذا التغيير العميق فى المجال الاعلامى ، مقدر له أن يحدث تحولاً فى عقولنا كبشر ، وفى طريقة نظرنا إلى المشاكل ، أو تحليل المعلومات ، أو حتى فى طريقة تقديرنا لعواقب ما نفعل . إن هذا التغيير كفيل بإحداث تغيير مناظر فى مفهوم المعرفة الذى تقوم عليه حياتنا .

سيتكفل الكمبيوتر بزيادة قوة عقولنا ، بمثل ما تكفلت تكنولوجيا الموجة الثانية بزيادة قوة عضلاتنا . . ومن الذى يعلم ما ستقودنا إليه عقولنا بعد أن تتضاعف قدرتها ؟ . .

بل إن الكمبيوتر قادر على تعميق رؤيتنا الحضارية لقانون السببية ، مما يضاعف فهمنا للعلاقات المتبادلة بين الأشياء ، ومساعدتنا على اجراء تجميع وتوليف هذه الأشياء فى شكل كليات لها معناها . . وهذه البيئة الذكية التى يحققها الكمبيوتر ، بينما توفر لنا طرق تحليل المشاكل ، واجراء التكامل بين المعلومات ، يمكن أن تحدث تغييراً فى كيمياء عقولنا ، فقد اثبتت التجارب المعملية فى علم الأحياء أن الحيوانات التى تتوفر لها بيئة أكثر غنى بالمعلومات ، تتميز عن نظائرها بخصائص بيولوجية فى المخ ، تضعها

فى مصاف الأذكى والاكثر تطوراً . وهكذا ، يمكن للبيئة الغنية بالمعلومات ، والتى يوفرها الكمبيوتر ، أن تجعلنا بنفس الطريقة أكثر ذكاء .

وكل هذا يشير إلى تغيرات أكثر دلالة يمكـن أن يحدثها المجال الإعلامى الجديـد للموجـة الثـالثة ، « فشرذمـة وتفتيـت جماهيريـة وسائل الاعـلام ، والصعـود الصاروخـى للكمبيوتـر ، يمكنهما معاً أن يحدثـا تغييراً فى ذاكرتنـا الاجتماعية نفسها » .

الـذاكـرة الاجتماعيـة

ولكى نفهم معنى تعبير الذاكرة الاجتماعية نقول إن كل الذكريات يمكن تقسيمها إلى تلـك التى تعتبر شخصية أو خاصـة جداً ، وتلك التـى نشارك فيها الآخرين ، وهذه الأخيرة هى التى يطلق عليها الذاكرة الاجتماعية .

الذكريات الشخصية تموت بموت الشخص . أما الذكريات الاجتماعية فهى التـى يكتب لها دوام الـوجود . وقـدرة الانسان على تسجيـل وتصنيف الذكـريات المشتركة هـى سر نجاح الانسان فى تطـوره الأكبر بالنسبة لبـاقى الكائنات الحيـة . ولذلك فأى تغيير ملموس يطرأ على طـريقتنا فى استنباط وتخزين واستخدام الذاكرة الاجتماعية يمس صميم ينابيع التطور البشرى .

وعلى مدى التـاريخ ، وفيما قبـل الحضارة الصناعيـة ، لم تتح لـلانسان امكانية تسجيـل الذاكرة الاجتماعية إلا فى أضيق نطاق . ولكـن ما أن حلت حضـارة الموجـة الثـانيـة حتـى حطمت حـواجـز الـذاكـرة الاجتماعيـة مـن الجمجمة ، وهيأت الـوسائل الجديدة لحفظها ، فـأتاحت لها بذلـك امتداداً يتجاوز حدودها السابقة بكثير .

واليوم نحن على وشك القفز إلى قلب مرحلة جديدة من مراحل تكوين الذاكرة الاجتماعية فالتغيرات الجذرية التى تحدثها الموجة الثالثة ، مثل التفتيت المتواصل لجماهيرية وسائل الاعلام ، واختراع الوسائل الجديدة فى الاتصال ، وتصوير الأرض بالاقمار الصناعية ، ومراقبة أحوال المرضى فى المستشفيات فى حفظ وتصنيف المعلومات بكل الطرق المطلوبة ، كل هذه التغييرات تعنى اننا أصبحنا نقوم بتسجيل نشاط حضارتنا بطريقة حساسة تحفظ أدق التفاصيل .

التفكير فى المستحيل

والانتقال إلى الذاكرة الاجتماعية للموجة الثالثة ليس مجرد تغير كمى فإذا كانت الموجة الثانية قد نجحت فى حفظ الذاكرة الاجتماعية خارج جمجمة الانسان ، فإن ذلك الحفظ كان يتسم بالسلبية والجمود . لقد كانت ذاكرة اجتماعية محنطة فوق صفحة جريدة أو كتاب أو على صورة أو فيلم سينمائى ولم يكن يتاح لرموز هذه الذاكرة أن تدب فيها الحياة إلا عندما يستقبلها مخ بشرى .

أما الموجة الثالثة فقد أحدثت انقلاباً عندما جعلت الذاكرة الاجتماعية ، بالاضافة إلى التزايد الكبير فى قدرها حية متفاعلة طوال الوقت .

فالكمبيوتر لا يقف عند حد مساعدتنا على تنظيم شذرات المعرفة فى شكل نماذج متكاملة للواقع . إنه يعمل أيضاً على توسيع الحدود البعيدة للممكن . لم نر من قبل مكتبة تفكر . أو ملفاً يتعقل ما به من معلومات أو

احصائيات . . لكن الكمبيوتر يمكن أن يستجيب إذا ما طلبنا منه « أن يفكر فيما لا يمكن التفكير فيه » . . فيما لم يفكر فيه البشر من قبل .

هذا فى حد ذاته سيتيح لنا فيضاً من النظريات والافكار والايديولوجيات والرؤى الغنية ، والانجازات التكنولوجية ، والابتكارات الاقتصادية والسياسية ، التى لم يكن يحلم بها أحد من قبل . ومن شأن هذا أن يساعد على المسارعة فى التغيرات التاريخية للانسان على الأرض .

الفصل السادس

حضارة ما وراء السوق

عند مطلع القرن الحادى والعشرين ، سنشهد بلا شك ثورة فى المصنع وفى المكتب معاً . . ثورة تقود إلى قيام أشكال جديدة تماماً فى الإنتاج تكون أكثر فائدة للمجتمع . وهذا سيقود بدوره إلى مجموعة من النتائج المركبة المتشابكة التى تؤثر على مناحى حياتنا . فما سيحدث لن يقتصر تأثيره على مستوى العمل الوظيفى أو على كيان الصناعة ، بل سيؤثر أيضاً على توزيع القوى السياسية والاقتصادية ، وعلى حجم وحدات الانتاج ، وعلى التقسيم الدولى للعمل ، وعلى دور المرأة فى الاقتصاد، وعلى طبيعة العمل ذاته . . والأهم من هذا وذاك ، أنه سيؤثر على تلك القطيعة التى خلقتها حضارة الموجة الثانية بين المنتج والمستهلك .

وكما تتجه وسائل الاتصال الجماهيرى نحو التشرذم ، ويتحول الجمهور العريض إلى جماهير صغيرة متعددة ومتباينة ، كذلك يتحول الانتاج الصناعى الذى يجرى على نطاق واسع ، إلى إنتاج محدود لعدة أنماط متباينة وفقاً لمزاج ورغبة وطلب الجماهير المتباينة . وهذا ما يقوم عليه الدليل حالياً فى جميع الدول الصناعية الكبرى ، فى الشرق كما فى الغرب .

يرى توفلر أن الخطوة القادمة ستكون بلا ريب هى خضوع الصناعة

بشكل كامل لرغبة المستهلك أو المشترى . وظهور الآلة التى تنتج سلعة واحدة بشكل ما ، ثم تنتقل مباشرة إلى إنتاج نفس السلعة بشكل آخر ، وهكذا . وهو يعطى مثلاً بصناعة الملابس . ففى المجتمع الزراعى كان الرجل الذى يريد رداء يتجه إلى الحائك أو إلى زوجته ، وكانت حياكة ذلك الرداء تتم على أساس المقاييس الخاصة بجسم الرجل ، والاختيار الخاص به لشكل الرداء . وبعد أن سادت الحضارة الصناعية ، جرى انتاج أعداد هائلة نمطية متطابقة على أوسع نطاق . كان العامل يضع طبقات القماش فوق بعضها بالعشرات ، ثم يضع فوقها الرسم أو الباترون ، ثم يستخدم السكين الكهربائية فى قصها جميعاً مرة واحدة . وهذه القطعة المقصوصة تدخل بعد ذلك مع غيرها فى عملية حياكة نمطية أيضاً ، لتقدم ملابس نمطية فى شكلها وحجمها .

أما الآن ، فقد توصلنا إلى الآلة التى تعمل بأشعة الليزر ، والتى تستمد نشاطها من ذاكرة كمبيوتر ، والتى يمكن أن تقص قيمصاً واحداً فى كل مرة ، ثم تنتقل فوراً إلى قميص آخر بقياسات أخرى ، وهكذا ، وفقاً للبرنامج الموضوع لها . وهى تقوم بذلك بسرعة وكفاءة أكبر وبتكلفة أقل ، إذا قيست على نظيرتها التى كانت تستخدم فيما مضى للانتاج على نطاق واسع .

ويقول أحد كبار رجال الصناعة الأمريكية بانتهاء عصر المقاسات النمطية . سيصبح بإمكان الشخص أن يذكر تليفونياً قياسات جسمه بدقة ، أو حتى يوجه كاميرا الفيديو إلى جسمه ، مغذياً الكمبيوتر بالمعلومات المتصلة بقياساته ، بحيث تنتقل هذه القياسات بشكل مباشر إلى الآلة التى

تستوعب هذه المعلومات وتستخدمها فى قص رداء بقياسات ذلك الشخص . وهذه الآلة الحديثة لن تتوقف بعد قص ذلك الرداء بل ستواصل مباشرة قص رداء آخر بقياسات مختلفة ، وهكذا مستعينة بذاكرة الكمبيوتر التى تخطط لها عملها وفقاً لرغبات الزبائن .

وهذا يعنى أننا أمام ثورة تمس أعماق نظام الانتاج الصناعى ، ويتصل بهذا ثورة أخرى بدأت ظهورها فى المكتب .

مكتب بلا ورق

فى المجتمع الصناعى ، وضعت أسس العمل المكتبى وفقاً لأسس العمل بالمصنع . والثورة التى تحدثها الموجة الثالثة فى المكتب جاءت نتيجة لتصادم عدة قوى .

تضاعف المعلومات التى نتداولها تضاعفاً خرافياً ، يجعل أية هيئة من العاملين فى المكاتب عاجزة عن التعامل معها . وحتى إذا توفر الجيش اللازم من السكرتيريين للقيام بهذا العمل ، فإن تكلفته ستكون هائلة . وفى مقابل هذا ، نجد انخفاضاً متواصلاً فى ثمن الكمبيوتر ، مع تضاعف الوظائف التى يقوم بها مما أحدث هزة أرضية قوية فى مجال العمل المكتبى .

مكتب المستقبل سيكون بلا أوراق ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى ما تم من تطور علمى فى مجال الكمبيوتر يتيح لك أن تتكلم إليه ، وترى النتائج التى تطلبها على شاشته ، أو تستمع إليها بأذنيك . أكوام الملفات التى يجرى حفظ المعلومات داخلها ، والتى تملأ حوائط بأكملها يمكن حفظها فى

أسطوانات صغيرة مرئية أو شرائط تسجيل صغيرة .

سيصبح بإمكان المدير أن يمل خطابه على الكمبيوتر ، فيسجله ، ثم يستعين بجهاز إضافى فى تصحيح الأخطاء اللغوية ، أو تركيب الجمل ، وينقل الخطاب فوراً إلى الشخص المعنى ، أو إلى الأشخاص المعنيين ، كل ذلك بتكلفة أقل ، وبكفاءة أعلى وبسرعة أكبر . وهذا المكتب الألكترونى ستكون له آثاره الاجتماعية والنفسية والاقتصادية العميقة على نظم العمل المكتبى .

البيــت الألكـترونى

هذه الثورة التى تحدث فى المصنع والمكتب ، ستقود إلى ثورة أخرى فى الانتاج والمجتمع ، ثورة سيمتد أثرها إلى البيت .

فالنظام الانتاجى الجديد ، بالاضافة إلى أنه يشجع على قيام وحدات العمل الأصغر ، ويقود إلى تفتيت مركزية وتركيز الانتاج فى المدن ، ويغير الطابع الفعلى للعمل ، بالاضافة إلى ذلك يحول ملايين الوظائف من المصانع والمكاتب إلى البيوت بشكل حرفى . وعندما يتم هذا ، سينعكس أثره على كل المؤسسات الاجتماعية التى نعرفها اليوم . . الأسرة ، المدرسة ، الشركة ، المصنع .

يقول الباحث هارف بويل « عندما نصل إلى تسعينيات هذا القرن ، ستتطور إمكانيات الاتصال المتبادل بدرجة تشجع على انتشار ممارسة العمل فى البيت » . ويقول روبرت لاثام مسؤول التخطيط فى مؤسسة بل بكندا «مع

تكاثر أنظمة المعلومات ، وتطور إمكانيات الاتصال ، سيتزايد عدد الناس الذين يمارسون أعمالهم فى بيوتهم ، أو فى مراكز العمل المحلية القريبة من بيوتهم » . . وقد جاء فى تقرير لمعهد المستقبل صدر عام ١٩٧١ « العديد من الأعمال التى يقوم بها المهندسون والمصممون وموظفو المكاتب يمكن أن تتم فى البيت ، بنفس الكفاءة التى تتم بها فى المكتب ، وربما بشكل أفضل» . .

وهذا ما يقود آلفين توفلر إلى الحديث عن « الكوخ الالكترونى » ، أو «البيت الالكتروني » . وهو بيتك المزود بأحدث وسائل الاتصال الالكتروني التي تتيح لك أن تمارس عملك وأنت جالس فيه لا تغادره . وهو يذكر عدة عوامل تدفعنا دفعاً إلى إشاعة « البيت الأكتروني » ، وإلى الاعتماد على الاتصال وليس على الانتقال . فمعظم الدول الصناعية تعاني اليوم أزمة الانتقال والمواصلات ، ومن مشكلة توفير المكان المناسب لترك السيارات ، ومن التلوث الناتج عن عوادم الاحتراق في السيارات ، وهي أزمات ومشاكل يمكن أن تنتهي من حياتنا إذا ما اعتمدنا على الاتصال .

هذه الخطوة ستساعدنا على توفير عنصر هام في حياتنا هو الطاقة ، فالطاقة اللازمة لا جراء الاتصال محدودة جداً ، ولا تقارن بالطاقة التي ننفقها على الانتقال من مكان إلى آخر . كذلك لا يمكن أن نغفل عامل الاقتصاد في الوقت . . فأنت تتصل في لحظة لكنك تحتاج إلى وقت في الانتقال . ويمكن أن ينعكس هذا فى شكل يوم عمل أقصر ، يتيح للإنسان المزيد من الفرص لتعميق علاقاته الاجتماعية ، وممارسة الهوايات التى يحبها .

ويرى توفلر أن نظام العمل من البيت يوفر استقراراً اجتماعياً ، فلا يكون على العائلة أن تغير مكان إقامتها كلما غير عائلها عمله . كل ما يحدث في هذه الحالة هو أن يدخل كابلاً جديداً على الكومبيوتر الخاص به . وانتقال العمل إلى البيوت لن يؤدى فقط إلى توفير استهلاك الطاقة ، بل سيتيح الاعتماد على أشكال متنوعة من الطاقة يسهل الوصول إليها في الأماكن المختلفة ، ويحد من المركزية الشديدة في الطاقة التى نعانى منها حالياً .

وهناك عنصر اقتصادى هام في انتقال العمل إلى المنزل ، فإنه يعنى تحول الأشخاص الذين يمتلكون أدواتهم الالكترونية إلى شركاء في العمل ، وليس مجرد موظفين تقليديين . أى أن الفرد سيصبح مالكاً لوسيلة الانتاج . مع احتمال أن يتضافر مجموعة من الجيران لتكوين ما يشبه الشركة الالكترونية الصغيرة ، لتوفير المزيد من القدرات التكنولوجية والاقتصادية للمجموعة .

الكوميون الالكتروني

ويرى توفلر أسرة المستقبل قائمة على المساواة بين الرجل والمرأة يرى الزوجة تقتسم مع الزوج الأجهزة الالكترونية التى في البيت لانجاز عملها الخاص ، أو تزامل زوجها في نفس العمل ، تتبادل معه ساعات العمل . وهو يتصور أن هذا سيزيد التقارب بين الزوجين ، ويتيح لهما تبادل الخبرات العملية ، مما يساعد على قيام علاقات زوجية جديدة . عمادها التفاهم ، وتتميز عن العلاقات الحالية بمزيد من السخونة . ويستطرد توفلر قائلاً إن مثل هذه العلاقات قد تحدث تغييراً في مفهوم الحب ، وتصل بنا إلى

ما يسميه الحب الأعلى أو الأكبر ، الذى يتضمن إشباعاً جنسياً ونفسياً ، بالاضافة إلى الإشباع العقلى .

وتباين أنماط ممارسة العمل فى البيت الألكترونى ستقود إلى تنوع فى أشكال الأسرة ، وبالتالى تنوع فى قواعد التعامل الفردى . وهو يرجح احتمال العودة إلى طراز الأسرة الكبيرة التى كانت شائعة فى المجتمع الزراعى ، والتى يطلق عليها توفلر اسم « كوميون الغد الألكترونى » . وهو يرى أن هذا الوضع سيجعل الانتاج أكثر إنسانية ، يتوافق مع الأشكال المتنوعة للنظام الأسرى .

المهم أن هذا الكيان الجديد لأسرة الموجة الثالثة قد بدأ يتشكل ، ليحل محل شكل الأسرة النووية الذى فرضته الحضارة الصناعية . وأسرة المستقبل ستشكل مؤسسة محورية فى المجال الاجتماعى الجديد للموجة الثالثة .

التضخم والبطالة معاً لأول مرة

هذه التغييرات تقود إلى تغيير مناظر فى المؤسسات الاقتصادية . لقد عرف العالم الصناعى العديد من الأزمات ، لكن الأزمة الجديدة التى يمر بها تختلف عن كل ما سبق ، إنها لا تقتصر على المال ولكنها تمس جذور هيكل نشاط المجتمع . وهي على عكس الأزمات السابقة تشيع التضخم والبطالة في آن واحد ، وليس على التتابع . كما أنها ترتبط مباشرة بالمشاكل الأساسية لعلاقة الكائنات الحية بالبيئة ، وبظهور أنماط جديدة تماماً من التكنولوجيا ، وبظهور مستوى جديد من الاتصال يؤثر على النظام الانتاجي . إنها ليست ،

كما يزعم الماركسيون ، أزمة الرأسمالية وحدها ، لكنها أزمة تسود الدول الصناعية الاشتراكية أيضاً . إنها باختصار أزمة الحضارة الصناعية كلها ، والتى تؤكد أن النظام الاقتصادى للموجة الثانية لم يعد مناسباً .

واليوم ، بدأت الموجة الثالثة طرقاتها . . مدير المؤسسة الاقتصادية يواجه تحدياً لكل افتراضاته السابقة . المجتمع الضخم الذى نشأت على أساسه المؤسسة الاقتصادية الضخمة قد بدأ يتجزأ إلى مجتمعات صغيرة ، وهذا التشرذم لن يقتصر على الاعلام والانتاج والحياة الأسرية ، لكنه سيصل إلى سوق التوزيع وسوق العمالة أيضاً . وقد بدأت بالفعل معالم تفتت المؤسسات الضخمة إلى وحدات أصغر ، أكثر تنوعاً ، وتوزيعاً فى أنحاء المكان .

إدانة المؤسسة الاقتصادية الكبيرة

واليوم ، يركز النقاد الاقتصاديون على نواقص المؤسسات الاقتصادية الكبرى ، يهاجمون القطيعة المفتعلة بين الاقتصاد ، والسياسة ، والأخلاق ، وباقى أبعاد الحياة ، إنهم لايقتصرون على تحميل المؤسسة الاقتصادية مسؤولية الأداء الاقتصادى ، لكنهم يعتبرونها مسؤولة بشكل متزايد عن كل شىء ، ابتداء من أزمة تلوث البيئة إلى أزمة الموظفين . . إنهم يأخذونها على أشياء مثل التسمم بمادة الأسبستوس ، ومثل استخدام الفقراء كفئران تجارب فى اختبارات العقاقير، وتخريب تطور الدول غير الصناعية ، وإشاعة التفرقة العنصرية والطائفية والتمييز بين الجنسين ، وغير ذلك من ضروب التآمر والخداع . إنها اليوم تتعرض للتشهير ، نتيجة لمساندتها النظم والأحزاب

الكريهة ، ابتداء من جنرالات شيلى الفاشيست إلى دعاة التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا .

وفى كل مؤسسة اقتصادية سنرى صراعاً داخلياً بين أولئك الذين يتمسكون بصيغة المؤسسة ذات الهدف الواحد ، والمرتبطة بالموجة الثانية المحتضرة ، وبين أولئك الذين يبدون استعداداً للتوفيق مع اشتراطات الموجة الثالثة فيما يتصل بالانتاج ، الذين يحاربون من أجل مؤسسة الغد متعددة الأهداف ، التى لا تقيم نشاطها على حساب حياة البشر ، والتى تدخل فى حسابها كل الاعتبارات الاجتماعية والبيئية والاعلامية والسياسية والخلقية .

دلالة صراع الآباء والأبناء

إن ما يجرى الآن هو انقلاب فى معنى الانتاج ، وفى مفهوم المؤسسات التى كانت ومازالت حتى الآن تتولى تنظيمه . والنتيجة ، تحول مركب نحو طرز جديدة من مؤسسات الغد الاقتصادية . ويقول وليم هالال ، أستاذ الادارة فى الجامعة الأمريكية ، « كما تم استبدال الاقطاعى بمؤسسة العمل عندما حل المجتمع الصناعى محل المجتمع الزراعى ، كذلك نجد أنفسنا اليوم مضطرين إلى استبدال النماذج القديمة من المشروعات بأشكال جديدة من المؤسسات الاقتصادية » .

والتغيير الذى يطرأ على المؤسسة الاقتصادية ، هو جانب من تغيير أكبر يطال المجال الاجتماعى ككل ، يواكب ما يجرى من تغيير فى المجالين التكنولوجى والاعلامى . وهذه التغييرات مجتمعة ستصنع التحول التاريخى

الضخم . فالمسألة ليست مجرد تغييرات ندخلها على هذه المؤسسات العملاقة ، إننا نغير طريقة الحياة اليومية للبشر . . إننا نغير الشفرة الأساسية التي كنا نعيش وفقها .

ويمكننا اليوم أن نلمس التغيير في ملايين البيوت ، في شكل صراع بين الآباء والأبناء حول الحياة والعمل والسلوك الشخصي . نرى اليوم الآباء في كل مكان ، في أمريكا واليابان وروسيا وفرنسا ، يتحدثون فيما بينهم عن تدهور أخلاقيات العمل ، وعن فقدان الولاء للمؤسسات الكبرى ، وعن ضعف الإحساس بأهمية التزامن ودقة التوقيت واحترام النظام عند الصغار .

والسر الحقيقي وراء هذه الظاهرة الشاملة ، هو أن شفرة جديدة للحياة بدأت تتشكل لتحل محل شفرة الحضارة الصناعية . شفرة تقوم على تفتيت الاقتصاد الضخم ، والاعلام الجماهيري ، وعلى تعديل مفهوم الأسرة والمؤسسة الاقتصادية . شفرة تهاجم ركائز الحضارة الصناعية ، كمبدأ التزامن أو ضبط التوقيت ومبدأ النمطية وخضوع كل شيء للتوحيد القياسي ، ومبدأ المركزية الشديدة ، إلى آخر هذه المبادئ التي فصلناها من قبل .

العمل لبعض الوقت فقط

لقد مضى عصر يوم العمل التقليدي في المصنع والمكتب من التاسعة صباحاً وحتى بعد الظهر . لقد انتهى مفهوم الوقت النمطي الذي عرفته الحضارة الصناعية ، وظهر مفهوم جديد للزمن . لقد تحدت الموجة الثالثة ذلك التوقيت الميكانيكي الذي كنا نلتزمه ، وغيرت بذلك الايقاع الأساسي

لحياتنا الاجتماعية ، وحررتنا من قيود الآلة ، وأرست قواعد ما يمكن أن نسميه « الزمن المرن » .

الموجة الثالثة ، كما عمدت إلى تفتيت جماهيرية الاعلام والكيان الهائل للمؤسسة الاقتصادية تسعى إلى تفتيت جماهيرية الزمن . وإلى أن تصبح ساعات العمل بالنسبة لأى إنسان مسألة تخضع لاختياره الحر . وقد بدأت تظهر تطبيقات الزمن المرن فى كل مكان . وللتدليل على ذلك نورد ما نشرته مجلة أوروبا عام ١٩٧٢ ، إذ قالت وقتها إن ٢٠٠٠ مؤسسة فى ألمانيا الغربية قد تخلت مبدأ التزامن فى العمل . وجاء فى احصائيات عام ١٩٧٧ ، أن ربع القوى العاملة فى ألمانيا الغربية ، ما يزيد على خمسة ملايين عامل ، يعملون فى أوقات متباينة ، لاتخضع لتوقيت يوم العمل التقليدى . وقد أثبتت التجربة العملية أن هذا التنوع فى مواعيد العمل قاد إلى المزيد من الانتاج ، وإلى انخفاض نسبة التغيب عن العمل ، بالاضافة إلى مكاسب أخرى .

ويرى توفلر أن مدينة المستقبل لن تعرف فروقاً بين ساعات الليل والنهار فى توزيع العمل . وأنه سيشيع فيها نظام العمل لبعض الوقت وفقاً لظروف الشخص أو استعداداته أو مزاجه . وسينعكس هذا على كل شيء . . ستعمل المحال الأساسية ليل نهار ، وسيعاد النظر فى ساعات الارسال التليفزيونى ، وفى مواعيد الوجبات ، وفى نظام العمل بالبنوك . إن النمط الجديد للوقت سيؤثر على إيقاعنا اليومى فى البيت ، وعلى فنوننا ، وعلى نظامنا البيولوجى . . ذلك لأنك ما إن تمس الوقت ، حتى تمس كل الخبرات البشرية .

سيرفض إنسان المستقبل أن يدخل فى قالب ، سبق إعداده له ، سواء باعتباره منتجاً أو مستهلكاً .

إننا نتقدم إلى عصر التعدد والتنوع فى كل شيء ، وفى أساليب الطاقة المستخدمة ، فى وسائل الاعلام التى نتصل بها فى أسعار البضائع وأشكالها ، فى الأحزاب التى ننتمى إليها ، وفى الأفكار التى نجتمع حولها . . لن يقتصر الأمر على شيوع سياسة الانتاج حسب الطلب والعمل حسب الطلب والفن حسب الطلب ، بل ستصبح رؤيتنا للعالم من حولنا حسب الطلب أيضاً !

الشبكة وليس الهرم

كل ما يميز جوهر الحضارة الصناعية يتهاوى . .

المركزية بدأت تفقد أنصارها ، وفى كل مرافق الحياة نتجه نحو اللامركزية أو الاقليمية أو المحلية . المؤسسات الاقتصادية الضخمة تتحـــول فعلاً إلى ما يطلق عليه « مراكز الربح » المتعـددة . البنوك العملاقة نبتت من حولها البنوك الصغيرة الاقليمية .

عشق الضخامة وبلوغ الأرقام القياسية سينتهي . . سيسقط شعار «تخصص لتنجح » ، سيكون للآباء رأى في مناهج التعليم ، وللمرضى رأي في تسير المستشفى يفرضونه على الاخصائيين . . سيسود شعار « ليس من الضروري أن تكون خبيراً لكي تعرف ما تريد » .

منظمة المستقبل ستعمل على نمط « الشبكة » وليس على نمط « الهرم » ، ستكون لا مركزية ، تتكون من أجزاء مترابطة ذات ترتيب وقتي خاص بين

كل جزء وآخر ، ولكل جزء منها علاقته الخاصة بالعالم الخارجي ، وله أيضاً سياسته الخارجية الخاصة التي لا تتطلب مراجعة الادارة المركزية . سيكون هذا التنظيم مرناً ، يتحور وفقاً للظروف، ويعيد ترتيب العلاقة بين أجزائه وفق مقتضيات المصلحتين العامة والخاصة . لقد كتب تونى جادج . أحد ألمع أصحاب النظريات التنظيمية ، يتحدث عن صيغة « الشبكة » التى ستقوم عليها مؤسسة المستقبل ، والتى لا تخضع لتنسيق علوى ، بل تتولى عناصر هذه الشبكة التنسيق فيما بينها ، وهو ما يطلق عليه تعبير « التوافق الذاتى » .

« المنتهلك » طراز المستقبل

ثم يعود توفلر بعد ذلك إلى الحديث عما أطلق عليه « المنتهلك » ، قاصداً المنتج المستهلك لانتاجه . . لقد شرحنا من قبل كيف كان إنسان الموجة الأولى ينتج ما يستهلكه ، وكيف أنه لم يكن منتجاً أو مستهلكاً بالمعنى المعاصر . لكن ما إن هبت رياح الحضارة الصناعية حتى أحدثت الهوة الحالية بين الانتاج والاستهلاك ، مما قاد إلى حتمية ظهور شبكة المبادلة بين المنتجين والمستهلكين ، التى نعرفها باسم السوق . تلك السوق التى أخذت تنمو وتتضخم بتسارع متلاحق ، راسمة خريطة كل نشاط فى المجتمع الصناعى .

يقول توفلر إن الأمر لم يكن على هذا التبسيط ، فمنذ البداية كان هناك قطاعان من قطاعات الانتاج : قطاع الانتاج من أجل الاستخدام ، وهو

القطاع « أ » ، وفيه أزرع قمحاً لأحصده وأصنع منه خبزاً آكله . وقطاع الانتاج من أجل المبادلة ، وهو القطاع « ب » ، وفيه أصنع أسلحة للفئوس أقدمها الفلاحين فى مقابل القمح الذى آخذه منهم وأصنع منه الخبز .

يقول توفلر إنه رغم شيوع القطاع « أ » فى المجتمع الزراعى ، فقد كان للقطاع « ب » نشاط نسبى ضعيف . لكن الوضع انعكس تماماً فى الحضارة الصناعية ، تضخم قطاع الانتاج من أجل المبادلة أو السوق ، وبقيت مظاهر محدودة من الانتاج بهدف الاستخدام .

إلا أن كلمة اقتصاد فى الحضارة الصناعية لم تكن تتضمن سوى الانتاج من أجل السوق ، وأغفلت حضارة الموجة الثانية أى شىء عن « المتهلك » . وهى بهذا تستبعد كل الأعمال المنزلية التى تقوم بها المرأة ، كالكنس والمسح والغسيل والطهى ورعاية الأطفال ، باعتبارها من الأمور الخارجة عن النشاط الاقتصادى . وبرغم أن النشاط الاقتصادى الذى تكلموا عنه ، لم يكن ليتواصل لولا ذلك النوع من النشاط المنزلى .

اصنعها بنفسك

واليوم ، بينما تعانى مجتمعات الموجة الثانية من أزمتها الكبرى والأخيرة ، ما زالت تتجاهل أى شىء عن قطاع الانتاج « أ » ، أو جهد المتهلك ، على الرغم من الاتساع المتزايد لنطاقه هذه الأيام ، بعد شيوع شعار « اصنعها بنفسك » ، والذى أتاح للإنسان أن يقوم فى منزله بالعديد من الأعمال التى كانت توكل عادة للمحرفيين . ونحن نرى مظاهر هذا الشيوع فى المحال

العامة على شكل سيل من الصناديق التى تضم أدوات النجارة والسباكة والطلاء ولصق ورق الحائط أو الموكيت ، وتصنيع قطع الأثاث ، بالاضافة إلى سيل مناظر من الكتب التى تشرح لك كيف تقوم بكل شىء .

ويقول توفلر إن شعار « اصنعها بنفسك » لم يقف عند حد الأعمال الحرفية ، وهو يورد قوائم بالجمعيات والروابط الفئوية ، التى يتعاون أفرادها فيما بينهم لحل مشاكلهم بأنفسهم ، سواء كانت نفسية أو اجتماعية أو سياسية أو صحية ، مما يعنى الاستغناء عن جانب من خدمات الاخصائيين المحترفين .

ويعقد توفلر مقارنة بين مبيعات الأدوات الكهربائية منذ عشر سنوات والآن . كان المحترفون منذ عشر سنوات يشترون ٧٠ فى المائة من هذه الأدوات، بينما يشترى الأفراد العاديون ٣٠ فى المائة منها . أما الآن فقد انقلبت الآية ، فأصبح هواة النشاط الذاتى يشترون ٧٠ فى المائة منها . بالطبع ساعد على هذا تصاعد أجور الحرفيين بشكل متواصل .

موازياً لهذا الاتجاه ، نرى تصاعداً فى الخدمات الذاتية بالسوق . وفيها يقوم المستهلك ببعض الجهد فى سبيل خفض طفيف فى سعر السلعة ، وهو مايقوم عليه نظام « السوبر ماركت » ، حيث يقوم المشترى بدور البائع فى نفس الوقت . وقد بدأت تظهر العديد من التطبيقات لهذا المبدأ ، وفى أعقاب أزمة الطاقة عام ١٩٧٣ ، ظهرت محطات الوقود التى تتزود فيها بوقود السيارة بنفسك ، وفى غيبة العامل . ثم ذلك الانتشار الواسع لنظام المصرف الألكترونى ، حيث يقوم العميل بنفسه بعمليات الايداع والسحب .

هذا التحول المتواصل من المستهلك للقيام بالعمل الانتاجى يحدث تغييراً جذرياً فى أكثر المؤسسات الاقتصادية أهمية ، نعنى بذلك السوق ، التى كانت قد قامت أصلاً لسد الفجوة بين الاستهلاك والانتاج .

السوق . . هدف الضربة الكبرى

عودة نمط « المنتهلك » ، مدعوماً بالارتفاع الصاروخى فى أجور الحرفيين، وبتداعى الخدمات البيروقراطية ، وبتوفر تكنولوجيات الموجة الثالثة ، وبتصاعد مشاكل البطالة ، يقود هذا وغيره إلى ظهور نمط جديد للعمل ولنظام الحياة . وإذا أدخلنا فى الاعتبار ما سبق أن طرحناه من أفكار، مثل الرجوع عن مبدأ التزامن من الآلة الذى فرضته الحضارة الصناعية ، وشيوع نظام العمل لبعض الوقت ، وظهور البيت الألكترونى كوحدة انتاجية ، والتغيرات المتوقعة فى تركيب الأسرة ، أمكننا أن نستخلص المزيد من معالم المستقبل .

سنرى اقتصاداً يقوم على أساس العمل لبعض الوقت ، مما يقتضي تعريفاً جديداً لمعنى يوم العمل الكامل ، ولمعنى الفراغ . فقد ثبت أن نسبة كبيرة مما نطلق عليه وقت الفراغ ينفقها الانسان في انتاج مايحتاج إلى استهلاكه باعتباره « منتهلكا » . ومن هنا سنرى سقوطاً للفواصل الحالية بين العمل ووقت الفراغ .

ومع نمو قطاع « أ » من الانتاج قطاع « المنتهلك » ، والذى يعنى الانتاج للاستهلاك الشخصى ، من المتوقع أن نشهد تغيراً شديداً فى بناء

شخصية الإنسان . وسيكون على رجال الاقتصاد فى الموجة الثالثة أن يستنبطوا نماذج ومقاييس جديدة للتعامل مع قطاع الانتاج « أ » ، الذى طال إهماله على يد اخصائيى الموجة الثانية .

ولكن . . ما الذى سيحدث للسوق ، ـ مصدر النفوذ ـ التى تربعت على عرش حضارة الموجة الثانية طويلاً ؟ . .

٣٠٠ سنة فقط

لقد عمل الجنس البشرى منذ عشرة آلاف سنة على تطوير شبكة المبادلة المعروفة باسم السوق .

وخلال ٣٠٠ سنة مضت ، بدأت هذه العملية تأخذ دفعاً صاروخياً على يد الموجة الثانية ، إلى حد أن فرضت السوق على حياتنا وعلى عالمنا بأكمله . ومع النمو المطرد الحالى لنمط « المتهلك » ، لنا أن نتوقع نهاية لسطوة السوق ، وحداً لفعاليتها فى حياتنا .

ثلاثة عوامل ساعدت على قيام السوق :

- اندفاع التجار المبشرين بحضارة الموجة الثانية إلى دعوة وإجبار المزيد من البشر على الدخول إلى السوق .
- العمل على ابتكار بضائع وخدمات جديدة لمجرد توسيع نطاق السوق .
- تزايد تعقيد وتركيب المجتمع والنشاط الاقتصادى ، مما اقتضى المزيد من الوسطاء الذين يكونون جانباً أساسياً من جسم السوق .

واليوم تتجه كل المؤشرات إلى هبوط قوة دفع هذه العوامل ، مما يوحى بانتهاء سطوة السوق . فالتوسع فى إدخال البشر إلى السوق بلغ غايته بوصول السوق إلى كل مكان . وقد تزايدت تكاليف عملية التبادل ذاتها تزايداً جنونياً ، جعلها تزيد فى كثير من الأحيان على تكاليف السلعة التى يجرى تبادلها . وظهرت صناعات ألكترونية وتكنولوجيات حديثة ، لا تستلزم بطبيعتها تحمل عبء هذا الجهاز الضخم . ولا تحتمل تكاليف السوق الخرافية

ما وراء السوق

لقد أوصلتنا السوق إلى عالم لم يعد لأحد فيه أن يتحكم فى مصيره . . لاأحد ولا دولة ولا ثقافة تسملك أمر نفسها . لقد حملت السوق معها عقيدة أن التكامل مع السوق عمل « متحضر » وأن الاكتفاء الذاتى بعيداً عنها عمل «متخلف » . وأشاعت بيننا المادية المفزعة ، وعقيدة أن الاقتصاد والدوافع الاقتصادية هى القوى الأساسية فى الحياة البشرية . ونشرت رؤية للحياة باعتبارها تتابعاً فى التعاملات التعاقدية ، وللحياة باعتبارها كياناً يتشكل نتيجة لترابط « عقود الزواج » أو « العقود الاجتماعية » . لقد صبغ فكر التسويق كل قيمنا وأفعالنا ، وحدد معالم حضارة الموجة الثانية .

وها هى الموجة الثالثة قد جاءت لتقدم لنا حضارة « ما وراء السوق » لأول مرة فى تاريخ البشرية .

يقول توفلر « أنا لا أعنى بتعبير ما وراء السوق عالماً مرتداً إلى مجتمعات

صغيرة معزولة تعتمد على نفسها بشكل نهائى ، غير قادرة أو قابلة للمتاجرة مع غيرها . . أنا لا أعنى خطوة إلى الخلف . بل أعنى بتعبير ما وراء السوق حضارة تعتمد على السوق ، لكنها ليست ، كما كان الوضع ، مستهلكة بالحاجة الملحة إلى تشييد وتوسيع وتنشيط هذه السوق وتحقيق التكامل لها » .

هذه التغييرات التى ستمس عمق أعماق البناء الاقتصادى الحالى ، هى جانب من نفس موجة التغييرات التى تدق بقوة اليوم على أسس النظم الحالية للطاقة والتكنولوجيا والاعلام والمؤسسات العملية والعائلية . وهى جميعاً تدخل فى نسيج واحد ، يشكل الطريقة التى ننظر بها إلى الحياة .

وهكذا ، يمكننا أن نلمس ما يطرأ من تغيرات ثورية على ما أطلقنا عليه اسم « الرؤية الصناعية » أو نظرة الحياة التى أشاعتها حضارة الموجة الثانية .

الفصل السابع

متى نتعلم حرفة الأمل ؟

فى معظم دول العالم ، لم يحدث من قبل أن وقع مثل هذا العدد الكبير من المتعلمين ، وربما أصحاب الثقافة العالمية ، فى مثل هذا اليأس العقلى ، بعد أن غرقوا فى دوامة الأفكار المتصارعة المختلطة المتنافرة الباعثة على الارتباك .

كل يوم جديد يأتى ببدعة جديدة أو اكتشاف علمى ، أو عقيدة ، أو حركة فكرية ، أو بيان اجتماعى . . آلاف التيارات المضادة تندفع أمام حيز الادراك : عبادة الطبيعة ، الادراك الحسى الخارق ، العلاج الكلى ، البيولوجيا الاجتماعية ، البنيوية ، الماركسية الجديدة ، علم الطبيعة الحديث ، الصوفية الشرقية ، الهوس بالتكنولوجيا والخوف المرضى منها .

إننا نشهد اليوم هجوماً متصاعداً على العلوم المستقرة ، ونرى إحياء للأديان والعقائد البدائية ، وبحثاً يائساً عن شىء ـ أى شىء ـ يمكن أن نؤمن به .

يقول آلفين توفلر إن معظم هذا الخلط فى حقيقته حصاد حرب ثقافية متصاعدة نتجت عن تصادم ثقافة الموجة الثالثة الصاعدة ، مع الأفكار الشائعة والاستخلاصات القديمة للمجتمع الصناعى . . إننا نشهد اليوم تمرداً فلسفياً يستهدف الاطاحة بالافتراضات التى سادت العالم على مدى ٣٠٠ سنة مضت .

إذا كانت الحضارة الصناعية تنظر إلى الطبيعة على أنها شىء وجد لكى

نستغله بشكل كامل ، واعتبرت نفسها فى حرب مع الطبيعة ، فإن ثقافة الموجة الثالثة تمضى بنا إلى طريق التوافق مع الطبيعة ، والحرص على كوكبنا وعلى الغلاف الجوى المحيط به .

كذلك تتغير نظرتنا إلى التطور . علماء الأحياء والحفريات والأجناس ، الذين يتصدون لمحاولة كشف أسرار التطور ، يجدون أنفسهم أمام عالم أكثر تعقيداً وتركيباً من ذلك الذى تصوره دارون بداية . . لقد تبينوا أن القوانين التى كان ينظر إليها يوماً ما على أنها شاملة ، ثبت عملياً أنها لا تنطبق فى الحقيقة إلا على حالات خاصة .

ونشأ بين علماء الأحياء تساؤل حول التطور البيولوجى للكائنات : هل هو نتيجة الأنواع والانتخاب الطبيعى ، أم أنه على المستوى الجزيئى ، بحيث يؤدى تراكم الأنواع إلى « تحول وراثى » دون الاعتماد على الانتخاب الطبيعى الداروني ؟

بل لقد بدأ يهتز أحد المبادئ الأساسية ، مبدأ خروج الأشكال الأكثر تعقيداً من الأشكال الأكثر بساطة . الأبحاث الحديثة تفيد أن الأشكال الأبسط من الحياة قد تأتى من الأشكال الأكثر تركيباً كما تشير إلى أن التطور يمكن أن يتحقق فى قفزات .

والأكثر من هذا ، يقوم علماء هندسة الجينات فى أنحاء العالم ، داخل معاملهم ، بخلق أشكال جديدة تماماً من الحياة ، أى انهم بذلك يتجاوزون عملية التطور ذاتها . مما يعنى أننا على وشك أن نصبح مصممى التطور .

مقياس أفلام هوليود

كذلك يمتد التغيير إلى أحد أهم مبادئ الموجة الثانية ، وهو مبدأ التقدم، أو منبع التفاؤل الذى تعيش عليه الحضارة الصناعية ، والقائل إننا نسير ، بلا رجعة ، على طريق التقدم فى ظل هذه الحضارة .

إلا أن الضربات الأولى للموجة الثالثة ، فى الخمسينيات والستينيات ، على أعمدة الحضارة الصناعية ، أحدثت انقلاباً فى هذه الصورة ، وحل احساس شامل بالتشاؤم بالنسبة لمستقبل الإنسان فى ظل هذه الحضارة . ولعل خير دليل على هذا ما جرى من تحول مضمون أفلام هوليود ، فبعد بطولات الثلاثينيات والأربعينيات ظهر إنسان الستينيات ضائعاً حائراً منهاراً، وكان المضمون المتكرر فى الأفلام هو أن الحياة لعبة ليس فيها رابح . وفى عالم اليوم يشيع بشكل متسارع ومتزايد اعتراف بأنه لم يعد من الممكن قياس التقدم بمصطلحات التكنولوجيا أو بمعايير المعيشة المادية وحدها . وبأن المجتمع الهابط خلقياً وجمالياً وسياسياً ، أو المجتمع الذى يعانى من مشاكل البيئة ، لا يمكن اعتباره متقدماً ، أياً كانت درجة ثراء ذلك المجتمع ، وأياً كان تقدمه التكنولوجى .

بدأت تنهزم فكرة أن المجتمعات يجب أن تسير على طريق واحد إذا ما استهدفت التقدم ، لتحل محلها فكرة إمكان تحقيق التقدم فى المجتمعات بطرق مختلفة .

معنى جديد للزمان والمكان

وكما تخضع مضامين الطبيعة والتطور والتقدم لتغيرات جذرية ، تتغير مفاهيم الزمان ، والمكان والفضاء والمادة والسببية . في هذا يقول جون جريبين ، عالم الطبيعة الفلكية والكاتب العلمي « . . لم يعد الزمان شيئاً ينساب إلى الأمام بلا رجعة ، وفقاً لايقاع ساعاتنا وتقاويمنا ، لكن الثابت علمياً أنه في طبيعته يدور وينبسط وينكمش ، وفقاً للموقع الذى تجرى منه قياساتك . . بل إن بإمكـان الثقوب السوداء أن تحيله كلية إلى زمـن سلبى . . » . وهذه ليست حقيقة جديدة ، فقد سبق أن أشار إليها اينشتين من قبل .

وإذا تركنا عـالم الأجرام العملاقة ، إلى الحياة الميكروسكوبية للجسيمات والأمواج ، سنواجه ظاهـرة محيرة أخرى . فنتيجـة للتجربة العمليـة اضطر الدكتور جيرالد فينبرج ، من جامعة كولومبيا ، إلى افتراض وجود جسيمات سماها « تاكيونات » تتحرك أسرع من الضوء ، مما يعنى امكان سير الزمن إلى الخلف ! . .

وإذا بدت هذه الاكتشـافات النظرية حـالياً بلا تطبيق عملى في حيـاتنا اليومية ، فكذلك كانت تبدو تلك الرموز والمعادلات المبعثرة بالطباشير فوق سبورة العلماء ، والتى قادت بعد ذلك إلى تحطيم الذرة .

ونفس الشىء ينسحب على رؤيتنا للمكان فقـد ادخلتنا الموجة الثالثة فى علاقـة جديدة مـع الفضاء ، أو المكـان . فهى تسعى إلى بعثرة البشر فوق سطح الأرض بدلاً من حركة التركيز التى باركتها الحضارة الصناعية . ستشجع الإنسان على الاستقرار فى بيته ، والعمل فيه أو قريباً منه ، وستنهى اضطرار

العامل إلى الهجرة سعياً وراء فرصة العمل ، ستجعله ينتقل أقل ، ويتصل أكثر فأكثر .

هذه التغيرات العميقة فى رؤيتنا تؤكد أننا نتحرك من ثقافة الموجة الثانية التى تتبنى دراسة الأشياء بمعزل عن غيرها ، إلى ثقافة الموجة الثالثة التى تؤكد على رؤية الشىء فى محيطه ، وعلى اعطاء أهمية كبرى للعلاقات بين الأشياء ، وباختصار على مبدأ « الكلية » ، ومبدأ السعى لتحقيق التوازن بالنسبة للكل ، وليس على حل الجزئيات .

اهتزاز قانون السببية

وأخيراً ، يصل التغيير إلى أعماق قانون السببية الذى يقوم عليه فكر الحضارة الصناعية ، والذى يقول إنه فى ظل الظروف الواحدة نحصل دائماً على نفس النتائج . فمع الفائدة العظمى التى تحققت فى حياتنا العملية . باعتمادنا على هذا القانون ، إلا أن بعض الظواهر ثبت أنها تستعصى عليه . وتبين أن قانون السببية حالة خاصة لا يجوز تعميمها على الإطلاق .

أما قانون السببية الخاص بالموجة الثالثة فيستمد كيانه من المضمون الأساسى لنظرية النظم ، أو من فكرة التلقيم المرتد ، أو التغذية المرتدة . ومثلها التقليدى البسيط هو الترموستات فى جهاز التكييف مثلاً ، الذى يعمل على حفظ درجة حرارة الحجرة عند حد معين ، فإذا ارتفعت الحرارة عن ذلك ، يعمل الترموستات على تشغيل الجهاز ليخفض الحرارة إلى الدرجة المطلوبة ، وعندما يتحقق هذا يتلقى الجهاز أمراً من الترموستات بالتوقف . هذا النوع من التلقيم المرتد يكون هدفه تحقيق التوازن ، ويطلق عليه التلقيم

المرتد السلبى . ونحن نجد العديد من تطبيقاته فى مجالات الفسيولوجيا والسياسة ، وغير ذلك من مجالات الحياة العامة .

إلا أنه فى بداية الستينيات ، بدأ الأستاذ ماجور ماروياما ، اليابانى الأصل ، يلاحظ أننا نهتم بالاستقرار ولا نعطى نفس الاهتمام للتغيير . ودعا إلى دراسة ما أسماه « التلقيم المرتد الايجابى » ، الذى لا يمنع التغيير ، بل يضخمه ويزيد من قدره . ويقول ماروياما إن التلقيم المرتد الايجابى هو الذى يكشف الانحراف الصغير فى النظام ، ويزيد من حجمه ، ليحقق تغييراً يهدد كيان ذلك النظام بأكمله . وقد فسر ماروياما العديد من الظواهر بهذا المبدأ ، ومن بين ذلك ظاهرة سباق التسلح بين الشرق والغرب .

ويقول توفلر : عندما نضع التلقيم المرتد السلبى إلى جوار الايجابى ، سنرى إلى أى حد تلعب هاتان العمليتان دورهما الهام فى التركيبات المعقدة ، من المخ البشرى إلى النظام الاقتصادى ، وسنخرج من هذا ببصيرة مدهشة . . سنعرف لماذا تقود الظروف المتشابهة إلى نتائج غير متشابهة . . وستبين ما إذا كانت تحكمنا الضرورة أم الصدفة . . إن هذه البصيرة تساعدنا على الخروج من سجن « إما » و « أو » الذى طال بقاؤنا فيه .

الدولة ، وضغط من أعلى وأسفل

هذا التغيير الجذرى الذى سيطرأ على الايديولوجية العليا لحضارة الموجة الثانية ، يصاحبه تغيير آخر يطرأ على صفوته العليا ، نعنى بذلك نظام الدولة ذاته .

ونظام الدولة يعانى اليوم من ضغطين يهددان كيانه الحالى ، أحدهما عبارة عن مجموعة من القوى تسعى إلى نقل السلطة السياسية من أعلى إلى أسفل ، من الدولة إلى الأقاليم والجماعات . والآخر عبارة عن مجموعة قوى أخرى تسعى الى نقل السلطة السياسية من الدولة الى أعلى ، أى إلى المنظمات الدولية والمؤسسات العالمية . وهذان الضغطان سيؤديان بالضرورة إلى تمزيق الدول ذات التكنولوجيا المتطورة إلى وحدات أصغر وأقل قوة . وخريطة العالم الحالية تؤكد هذا التحليل ، وتؤكد أن هذين الضغطين يؤثران بنفس القدر فى الولايات المتحدة الامريكية وفى الاتحاد السوفييتى .

هذا التشرذم لن يمس نظام الدولة فقط بل سيمتد أثره إلى المؤسسات الاقتصادية والاتحادات التجارية والجماعات السياسية والعرقية والثقافية . والغريب ، أنه فى الوقت الذى تسعى فيه الدول الفقيرة إلى اكتساب هوية الدولة ، باعتبارها أمراً ضرورياً لقيام صناعة ناجحة « على الأقل بمنطق الحضارة الصناعية » ، فى نفس هذا الوقت تواجه الدول الغنية التى تجاوزت عصر التصنيع انتقاصاً دائماً لدور الدولة .

باختصار ، نحن نتحرك نحو نظام عالمى يتكون من وحدات صغيرة ترتبط فيما بينها ارتباطاً قوياً ، مثل النيورونات أو الخلايا العصبية التى فى المخ ، وليس كما فى النظام البيروقراطى : وحدات صغيرة تنتظم داخل ادارة كبرى .

وظهور الموجة الثالثة ، لا يسقط فقط أفكار ومؤسسات الموجة الثانية ، لكنه ينسف كل ما تعارفنا عليه من أفكار للقضاء على الفقر فى العالم ، ويسقط المبررات الكاذبة التى تسوقها الدول الصناعية المتحضرة لفشل الدول

النامية فى التطور والتصنيع . وفى هذا يقول توفلر « استراتيجيات تطور الغد لن تأتى من واشنطن أو موسكو أو باريس أو جنيف ، بل ستأتى من افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . . ستكون نابعة من الحاجات المحلية الفعلية ومتوافقة معها . . استراتيجيات لا تعطى اهتماماً مبالغاً فيه للاقتصاد على حساب البيئة أو الثقافة أو الدين أو البناء الأسرى ، أو الابعاد السيكلوجية للوجود . . استراتيجيات لا تقلد الاشكال السابقة » . .

تجنب أسوأ ما ينتظرنا

واليوم . . لم نعد حيث كنا منذ عشر أو عشرين سنة مضت ، تنتابنا الحيرة نتيجة للتغيرات العديدة التى تجرى من حولنا ، لا ندرك ما بينها من علاقات . لقد بدأت تبدو لنا من خلال خليط التغيرات صورة متزايدة الوضوح للمستقبل الذى بدأ يتشكل .

إن ما يجرى ليس مجرد ثورة تكنولوجية ، لكنه مقدم حضارة جديدة متكاملة بكل معنى الكلمة . . ومع ذلك فاستتباب هذه الحضارة الجديدة فى حياتنا لن يكون على شكل رحلة ناعمة سهلة ، ففترة التحول التى نعبرها حالياً ستصطبغ بالقلاقل الاجتماعية الشديدة الوطأة ، تصاحبها تذبذبات اقتصادية وحشية ، وصراعات وانقسامات شديدة ، ومحاولات بائسة متتابعة من أنصار الحضارة الصناعية ، وكوارث تكنولوجية ، واضطرابات سياسية ، وعنف وحروب .

إن سيادة الحضارة الجديدة لن تتم بدون مقاومة أو عوائق ، ففى ظل تحلل المؤسسات والقيم القديمة ، سيسعى دعاة النظم الفاشيستية والحركات

الشمولية إلى الاستيلاء على السلطة . ومع ذلك فالاحتمالات لا يمكن أن تكون في صف التخريب والفوضى ، بل ستكون حتماً في جانب ارادة الحياة والوجود .

من المهم أن نعرف جيداً إلى أين تأخذنا اندفاعات التغيير الأساسية ، وأى عالم يمكن أن يتشكل حولنا ، إذا ما أمكننا تجنب أسوأ ماينتظرنا من مآزق ومتاعب . وأن نعى جيداً صورة المجتمع الجديد الذى يتشكل أمامنا .

ويمكن أن نعيد تلخيص معالم حضارة الموجة الثالثة فى النقاط التالية :

تنوع مصادر الطاقة

حضارة الموجة الثالثة ، على عكس سابقتها ، سيكون عليها أن تستنبط تشكيلة جديدة عجيبة من مصادر الطاقة : من الايدروجين ، والشمس ، وحرارة الأرض الجوفية ، والأمواج ، وشحنات البرق . . وربما طاقة متطورة من الاندماج النووى النظيف ، بالاضافة إلى مجموعة أخرى من مصادر الطاقة الجديدة التى لا يمكن لأحد فى الثمانينيات أن يتصورها .

الانتقال إلى الأسس الجديدة المتنوعة للطاقة لن يكون سهلاً ، ويتحقق من خلال تقلبات شديدة بين توفر ونقص المنتجات ، والارتفاع الجنونى فى الأسعار .

● تنوع الأسس التكنولوجية

ستعتمد حضارة الموجة الثالثة على قواعد تكنولوجية أكثر تنوعاً بكثير مما هو حادث : تكنولوجيات بيولوجية ، ووراثية والكترونية ، ثم تكنولوجيا الفضاء الخارجى وأعماق المحيطات . بينما تتطلب بعض هذه التكنولوجيات

قدراً عالياً من الطاقة ، فإن أغلب تكنولوجيات الموجة الثالثة ستكون مصممة بحيث تستخدم طاقة أقل . كما أن هذه التكنولوجيات لن تتطلب ضخامة في الانتاج أو مخاطر على البيئة . . ستفرض الانتاج على نطاق صغير ، سهل في تشغيله ، تستغل فيه عوادم الانتاج كمواد خام في صناعة جديدة .

وأهم المواد الخام في حضارة الموجة الثالثة هي المعلومات التي تحيى الخيال . . وهي مواد خام لا يمكن أن تستنفد . . من خلال الخيال والمعلومات سيتم التوصل إلى بدائل للمواد المتناقصة ، وإن كان التحول إلى هذه البدائل سيتضمن بالضرورة قلاقل اقتصادية ، واضطرابات في سوق المال .

● وسائل اتصال ليست جماهيرية أو نمطية

مع تزايد أهمية المعلومات ، بشكل لم يسبق له مثيل ، ستعيد الحضارة الجديدة تشكيل التعليم ، وتعيد تعريف البحث العلمي ، والأهم من هذا وذاك ستعيد تنظيم وسائل الاتصال الجماهيرية . وحضارة الموجة الثالثة بدلاً من أن تخضع ثقافياً لعدد محدود من وسائل الاتصال الجماهيرية ، ستقوم على وسائل اتصال جزئية غير جماهيرية ، قوية التفاعل فيما بينها ، تغذى رؤى متنوعة إلى أقصى حد ، وشخصية للغاية . وهذا التحول نحو مجتمع يقوم على المعلومات ، ويعتمد على الكترونيات عالية ، سيعمل على عكس المفهوم الخاطئ الشائع على خفض احتياجاتنا من الطاقة عالية التكلفة .

● انماط جديدة من العمل

هذا الاندماج بين أشكال متنوعة للطاقة والتكنولوجيا ، ووسائل اتصال

وإعلام متنوع وغير جماهيرى ، سيعجل بالتغيرات الثورية فى الطريقة التى نعمل بها . ففى حضارة الموجة الثالثة لن تعود للمصنع وظيفته الحالية كنموذج أساسى لغيره من المؤسسات . ولن يظل محتفظاً بطبيعته فى الانتاج على نطاق واسع ، بل سينتج سلعاً شخصية وحسب الطلب . وبفضل التطور التكنولوجى الالكترونى ، لن يكون العمل فى مصنع المستقبل آلياً متكرراً أمام خط التجميع ، بالصورة الكاريكاتورية التى رسمها شارلى شابلن فى « العصور الحديثة » . كما ستقام مصانع الموجة الثالثة خارج العواصم الكبرى ، وستكون أصغر حجماً ، فتكون من وحدات أشد صغراً ، وتتمتع كل وحدة منها بدرجة أعلى من الادارة الذاتية .

كذلك سيتغير وجه المكتب فى المؤسسات الادارية ، حيث تقوم الأجهزة الالكترونية بدلاً من البشر بالعديد من الأعمال الادارية الحالية ، بكفاءة أعلى وتكلفة أقل . . سيختفى الورق من المكاتب وتحل محله الذاكرت الالكترونية . لكى تعمل مصانع ومكاتب المستقبل بكفاءة ، ستحتاج إلى أشخاص قادرين على التمييز وعلى اتخاذ القرار ، وعلى ممارسة التفكير الخلاق ، فى مكان ما يعتمدون عليه حالياً من استجابة الية . وهذا بدوره سيقتضى تغييراً جذرياً فى أسلوب الدراسة والنظام المدرسى .

● البيت مقراً للعمل

أكثر التغيرات المتصلة بالموجة الثالثة لفتاً للنظر سيكون تحول من المصنع والمكتب إلى البيت . بالطبع لن تنتقل كل الأعمال إلى البيوت ، إنما سيشجع على المضى فى هذا السبيل انخفاض نفقات الاتصال إذا قيست بنفقات الانتقال ، وتزايد دور الخيال والذكاء فى الانتاج ، واختفاء العمل اليدوى

القاسى أو العمل العقلى الروتينى . وسيعمل فى مصانع الموجة الثالثة من يجب عليهم فعلاً التعامل المادى مع الخامات . ويرى توفلر أنه مع تزايد دور المعلومات فى حياتنا ، ستتولى الجامعة معظم ما يقوم به المصنع حالياً ، وستصبح المؤسسة المركزية فى حياتنا .

● شيوع نمط « المنتهلك »

ستساعد التغيرات السابقة فى فهم دلالة اندماج الانتاج بالاستهلاك ثانية، وقيام ما يطلق عليه توفلر تعبير « المنتهلك » ، أى من ينتج ليستهلك انتاجه . ستعتمد حضارة الموجة الثالثة على قطاع طال اغفاله خلال سنوات الحضارة الصناعية ، وهو قطاع الانتاج من أجل الاستهلاك الشخصى وليس من أجل التبادل . سيشيع قطاع « افعلها بنفسك » ، على حساب قطاع « افعلها للسوق » . وسيقود هذا إلى تفكير جذرى جديد فى مشاكلنا الاقتصادية ، من بطالة وتأمين اجتماعى ودور العمل فى حياتنا . . وسيؤدى إلى تقدير جديد لدور العمل المنزلى من الناحية الاقتصادية ، مما يقود إلى تغير نظرتنا إلى المرأة .

● ايديولوجيات عليا جديدة

سيتبنى أبناء الموجة الثالثة استخلاصات وأفكاراً جديدة حول الطبيعة والتقدم والتطور والزمان والمكان والمادة وقانون السببية . . لن يستمدوا تفكيرهم من القياس على الآلة وطبيعة عملها . . لهذا سيظهر حشد من العقائد الجديدة ، والرؤى الجديدة للعلوم ، ولطبيعة الانسان ، وستظهر أشكال جديدة فى الفن . . وسيكون هذا على درجة من التنوع والثراء لم تتحقق للانسان من قبل .

● انحسار سلطة الدولة

التنوع المتزايد فى المجتمع سيعنى انخفاضاً فى دور الدولة ، التى ما زالت تعتبر حتى الآن القوة العظمى للتوحيد القياسى وتحقيق النمطية . ستقوم حضارة الموجة الثالثة على توزيع جديد للقوة لا تصبح للدولة فيه نفس قوتها الحالية ، ويضاف ما تفقده من سلطة وقوة إلى مؤسسات جديدة ، عالمية واقليمية محلية .

ستكتسب الاقاليم سلطة أكبر مع تشرذم اقتصاديات الدولة وسوقها . وقد تنشأ تحالفات جديدة ، ليس على أساس التقارب الجغرافى ، ولكن على أساس وحدة التوجهات البيئية والاقتصادية والدينية . ولن يتم هذا من خلال سلطة عالمية ، بل من خلال شبكة تنظيمات ، تتبادل العلاقات والتأثير .

● أمل جديد للشعوب الفقيرة

الدول غير الصناعية ، التى تكون ثلاثة أرباع الجنس البشرى ، ستحظى بأدوات جديدة فى صراعها مع الفقر ، ولن تضطر إلى تقليد نمط مجتمعات الموجة الثانية بشكل أعمى ، كما لن ترضى بظروف الحياة الخاصة بالموجة الأولى . وستظهر استراتيجيات وتنمية جذرية فى جدتها ، تعكس الخصائص الدينية والثقافية الخاصة لكل منطقة أو اقليم . لن تعمد الدول النامية إلى تمزيق وجدانها وثقافتها وعقيدتها ، على أمل أن تصل إلى تقليد آلى للدول الصناعية المتقدمة .

براكتوبيا

حضارة الموجة الثالثة التى نتحدث عنها هل يمكن أن نعتبرها مدينة فاضلة ، كتلك المدن الفاضلة التى رسمها الفلاسفة على مدى التاريخ ؟ .

يقول آلفين توفلر إنه لايمكن اطلاق تعبير « يوتوبيا » أو مدينة فاضلة على الصورة التى يطرحها لحضارة الموجة الثالثة ، وهو يميل إلى أن يطلق عليها تعبيراً جديداً هو « براكتوبيا» أى مدينة فاضلة عملية .

وهو يرى أن تشكل حضارة الموجة الثالثة سيصاحبه العديد من المشاكل ، مثل مشاكل علاقة الانسان بالمجتمع ، والحياة السياسية ، والعدل والعدالة ، والأخلاق . ثم مشاكل أخرى كمشاكل استقرار الأوضاع الاقتصادية الجديدة ، والعمالة ، والضمان الاجتماعى ، والتحول إلى الانتاج للاستهلاك الشخصى . ومع ذلك فهو يتحفظ قائلاً « إلا أن هذا لا يعنى أن حضارة الموجة الثالثة مدينة فاضلة سلبية متشائمة كالتى تصورها قصص الخيال العلمى ، وترسم فيهاصورة المستقبل قائمة على المزيد من التركيز والبيروقراطية والمجتمعات النمطية ، تنمحى فيها الفوارق الشخصية والفردية . . إننا على العكس من ذلك نتجه إلى المسار المضاد !! . . » .

وهو يصف « براكتوبيا» ، المدينة الفاضلة العملية ، بأنها ليست أفضل الاحتمالات ولا أسوأها ، لكنها تجمع بين أمرين : فهى عملية ، وتفضل ما بين يدينا . وبعكس المدن الفاضلة الأخرى التى رسمها الفلاسفة بصورة مثالية ، ليست «براكتوبيا» خالية من الأمراض ، والسفالات السياسية ، والانحطاط الخلقى . . وبعكس المدن الفاضلة الأخرى ليست جامدة متحجرة ، جمود وتحجر الصور المثالية غير الواقعية .

إن حضارة الموجة الثـالثة تتيح لإفراد أكبر قدر من التنـوع ، وهى تشجع الفوارق العـرقية والاقليمية والـدينية . . وهى على أية حال حضارة حـافلة بالاحتمالات الديمقراطية والإنسانية .

مطاردة قتلة الأفكار

يختتم آلفين توفلر رؤيته الغنية حول حضارة الموجة الثالثة قائلاً :

« إن مسئولية التغيير تقع على أكتافنا . . علينـا أن نبدأ بأنفسنا . . علينا أن نتعلم الا نغلق عقولنـا أمام كل ما هو جديد ، أو غـريب ، أو متناقض مع ما تعودنا عليه . . وهذا يعنـى أن نطارد ونحارب « قتلة الأفكار » الذين يندفعـون لوأد أى اقتراح جـديد بدعوى انـه غير عملى ، وفى نفس الـوقت يدافعون عن كل ما هو موجود باعتباره عملياً ، بصرف النظر عما إذا كان هذا الموجود عبثياً جائراً خرباً . . إنه يعنى أن نسعى إلى إقامة نظام من أجل حرية التعبير ، وحق النـاس فى أن يرفعوا أصـواتهم بما يعتقدونه . . أيـاً كان ذلك الذى يفكرون فيه » . .

« علينـا أن نبدأ عمليـة البنـاء من الآن ، وقبـل أن يضعنـا تحلل النظـم السياسية الحالية تحت وطأة المغامرات العسكرية ، وقبل أن يصبح مستحيلاً القيام بعبور سلمى إلى ديمقـراطية القـرن الحادى والعشرين » . .

وبعد . .

وبعد . . فلقـد حاولت فى هـذا الجهد أن أطـرح رؤية شاملـة للعالم فى مطلع القرن الحادى والعشرين ، بعيدة عن التحيز لفكر معين أو ايديولوجية

خاصة . فأوردت رأى علماء المستقبل فى الدول الرأسمالية وفى الدول الشيوعية معاً . . ثم أوردت رؤية خلاقة فريدة . لمفكر يراها بعين لماحة، على شكل موجات عظمى متلاحقة ، تندفع واحدة، وراء الأخرى ، لتسود عالمنا بأكمله . . شرقه وغربه . .

لقد سبق أن قدمت فى كتاب « هذا الغد العجيب » رؤية لمستقبل العالم من الناحيتين العلمية والتكنولوجية . . وفى هذه المحاولة ، تصديت لمهمة أصعب ، هى محاولة تصور مستقبل العالم من النواحى الاجتماعية والثقافية والسياسية والعقائدية . . تصديت لأمور تمس جوهر حياتنا فى المستقبل القريب جداً ، مستقبل نعايش بعض ارهاصاته ، ويعايش أولادنا وأحفادنا واقعه كاملاً . .

وهو مستقبل لنا فيه ـ كدول نامية ـ دور كبير ، وهو يشكل بالنسبة لنا الأمل فى اجتياز الهوة التى تفصل بيننا وبين الدول الصناعية المتطورة . .

وتبقى بعد ذلك بعض التساؤلات . .

هل آن الأوان لكى يهتم مفكرونا وكتابنا بالمستقبل الخاص لعالمنا الثالث، فى اطار عالم الغد ؟

هل يكفى أن يصدر لقارئ العربية ، بين الحين والآخر ، مقال هنا وكتاب هناك ، حول موضوع يمس صميم وجودنا ؟

ألا يجدر بنا أن نتكاتف جميعاً لكى نوقظ فى شعبنا العربى الاحساس بالمستقبل ، وننمى فيه حرقة الأمل ؟

الفصل الثامن

مشروع للمناقشة

« تطبيق على الواقع المصرى »

مستقبل مصر
من خلال رؤية واقعية . . ومتفائلة

كل ما نكتشفه من نواقص فى حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ينبع من نقيصة كبرى ، هى غياب الأمل القومى ، ركيزة الطموح القومى .

هذه النقيصة الكبرى فعلت فعلها فينا على مدى ما يقرب من ثلاثين عاماً . . . وأفرخت كل ما هو سلبى فى حياتنا ، وأورثتنا حيرة وضياعاً ، لم تشهدهما مصر منذ زمن طويل .

فالأمل القومى ، هو العمود الفقرى ، الذى لايتحقق بدونه الحد الأدنى من الانسجام والتوافق فى حياتنا ، وهو العصب الذى يشد عزمنا ، لإنجاز أى تطوير حقيقى لواقعنا .

والأمل القومى لا يمكن أن نستحضره بالشعارات ، أو بإثارة النعرات . سبيله الوحيد : استراتيجية عليا بعيدة المدى لشعب مصر ، نلتف حولها ، وتساعدنا على تقويم جهودنا فى كل سبيل ، وتحقيق التكامل لهذه الجهود . استراتيجية واضحة ، تخرجنا من نطاق ردود الأفعال إلى حيز الأفعال ، وتتيح لهذه الأفعال أن تتضافر فى سمت مقصود .

فمع كل النيات الطيبة ، والجهود الصادقة الجادة التى تبذلها مؤسساتنا ،

فى الحكم وخارجه ، نبقى جميعاً فى دائرة ردود الفعل . . . نتحرك لسد عجز، أو نسعى لمواجهة مشكلة مثارة ، أو نحتشد لصد خطر . . . دائماً يأتى الفعل من خارجنا ، ويبقى جهدنا عند حد التصدى لذلك الفعل .

والنتيجة . . تشتيت للقوى ، وتناقض فى المسارات ، بسبب غياب المقياس ، أو (المسطرة) ، التى توحد مواقفنا فى حركتنا : أولاً فى سعينا إلى التطور ، ثم فى مواجهتنا لما يعترضنا من عقبات .

* * *

عندما نفكر فى وضع استراتيجية عليا لمصر ، لا يمكن أن يتم ذلك بمعزل عن التطورات الشاملة التى يمر بها العالم . . التطورات التى تمس صميم الحضارة الصناعية ، التى فرضت عقائدها ومبادئها على كل نواحى النشاط البشرى ، منذ أكثر من ثلاثة قرون .

إن هذه الحضارة الصناعية تتهاوى تحت ضربات حضارة جديدة زاحفة ، أكثر إنسانية فى جوهرها ، وأكثر احتراماً للإنسان ، جسداً وعقلاً وروحاً .

والآن . . . .

على ضوء ماسبق ، يمكن أن نتصور معالم استراتيجية كاملة لمصر ، تختلف عما سبق طرحه من استراتيجيات ، لأنها تقوم على منطق يختلف عن ذلك المنطق الذى خلقته الحضارة الصناعية ، والذى فرض نفسه علينا فى الكليات والجزئيات ، شعورياً ولاشعورياً .

إذا ما اقتنعنا بما يطرحه علماء المستقبل ، علينا أن نبذل جهداً خلاّقاً فى النظر إلى واقعنا على ضوء التصور الجديد ، فى محاولة لرسم ملامح المستقبل المصرى ، فى كل مجال من المجالات . وعلينا بعد ذلك أن نحدد الواجبات والأولويات ، التى تساعد فى تجاوز الفاصلة بيننا وبين الدول المتطورة ، والتى تضعنا على المسار السليم ، وسط التطورات التى يمر بها عالم اليوم .

وأطرح هنا ، على سبيل المثال ، بعض الواجبات التى تحتاج إلى دراسة :

* احتمالات التركيز على مصادر غير ضخمة للطاقة ، مصادر متجددة ، ومتنوعة ، تناسب كل إقليم . وإعادة النظر فى بناء المفاعلات الذرية غير النظيفة .
* حملة واسعة لخلق كادرات علمية فى مجال التكنولوجيات الجديدة (الالكترونيات ، هندسة الجينيات ، البتروكيماويات المتطورة ، الفضاء ، وسائل الاتصال المتطورة) . وتدريب قواعد عاملة عريضة لها فى نفس الوقت .
* تغليب وسائل الاعلام الاقليمية والنوعية ، وإتاحة الفرصة بشكل أكبر لتعدد الرؤى ، وتنوع الاتجاهات .
* بدء حملة قومية لتعميم استخدام الكمبيوتر ، والتدريب على استعماله وصيانته ، وجعله عنصراً أساسياً فى برامج التعليم . والتركيز فى العلاقات الدولية على اكتساب الخبرة التكنولوجية اللازمة للبدء فى إقامة صناعات الكترونية متطورة .
* اقامة مخازن معلومات ، وشبكة اتصالات الكترونية ، وتعميم شبكة

كابلات الاتصال فى جميع أنحاء الجمهورية ، حتى يمكن الاعتماد على الاتصالات كبديل للانتقال .

* التركيز على خلق مراكز صناعية إقليمية صغيرة ، تنتشر فى أنحاء البلاد ، تناسب كل اقليم ، وتعتمد على مصادر الطاقة الأنسب محلياً . وتشجيع نمط المنتج الذى يستهلك إنتاجه ، هو أو الدائرة المحيطة به . وبهذا ينتهى النظر إلى التزايد السكانى كأزمة .

* إعادة النظر فى يوم العمل التقليدى ، والتحول عن فكرة التزامن الميكانيكى ، وتشجيع ممارسة العمل فى البيت .

* أساليب التحول من النظام الهرمى إلى نظام « الشبكة » ، التى تنبع قراراتها من التنسيق بين المصالح الخاصة والعامة لعناصرها ، والتى تعدل كياناتها دائماً وفقاً للظروف التى تمر بها . والتفكير فى تطبيق هذا ابتداءً من التنظيمات الاقليمية الصغيرة ، إلى كيان الدولة ذاته ، بل وإلى التنظيمات الدولية العربية والاسلامية .

* إعادة النظر فى مركزية الدولة ، النابعة من منطق واحتياجات الحضارة الصناعية . وإعادة النظر فى أنظمة التمثيل النيابى الحالية ، بحيث تصبح أكثر حيوية فى تعبيرها عن إرادة البشر ، وبحيث تنتفى عنها صفة الميكانيكية التى فرضتها الحضارة الصناعية .

راجى عنايت

المراجع

المراجع العربية :

١ ـ صدمة المستقبل ـ آلفين توفلر ـ ترجمة محمد على ناصف ـ دار النهضة .

٢ ـ هذا الغد العجيب ـ راجى عنايت ـ دار الشروق .

المراجع الانجليزية :

(1) THE THIRD WAVE - ALVIN TOFFLER - BANTAM.

(2) PREVIEWS AND PREMISES, ALVIN TOFFLER - PAN.

(3) THE ADAPTIVE CORPORATION, ALVIN TOFFLER - PAN.

(4) THE PRIVATERFUTUE - MARTIN PAWLEY - PAN.

المحتوى

« مستقبليات » راجي عنايت

ظهر منها حتى الآن :

- هذا الغد العجيب .
- أحلام اليوم حقائق الغد .
- المستقبل بين الشرق والغرب .
- العالم سنة ٢٠٠٠.
- حوار مع صديقى الذكى .
- أفيقوا .. يرحمكم الله !

رقم الإيداع : ٢١٥٧ / ٨٧
الترقيم الدولي : ٦١ ـ ٠٧٦ ـ ١٤٨٠ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

العالم
سنة ٢٠٠٠م
مستقبل جديد للبشر

- الأنفاس الأخيرة للحضارة الصناعية التي سادت العالم
- حضارة الموجة الثالثة التي تدق بعنف على دعائم الحضارة الصناعية
- شكل الحياة الجديدة التي تنتظرنا في المستقبل القريب
- تحول العمل من المصنع والمكتب الى البيت
- انتهاء عصر المدن العظمى والشركات العملاقة
- الانتاج من أجل الاستهلاك الشخصي يسود حياتنا قريباً
- سقوط دولة السوق الذي يتحكم في حياتنا
- الحضارة القادمة أمل جديد لشعوب العالم الثالث